التحرير المبين لمسألة الاستغاثة بالمخلوقين في أمر
لا يقدر عليه إلا رب العالمين
ومناقشة دعوى المجاز العقلي عند القبوريين

ويليه بيان عقيدة المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى اللّٰه عليه وسلم وأهمية معرفتها، وكيف تلاعب بهم الشيطان؟

أديب بن أحمد يوسف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن مباحثَ العبادة والتوحيد من أجلِّ أبواب العلم وأعظمها أثرًا؛ إذ تتعلّق بحقّ الله تعالى على عباده، وبما يجب صرفه له وحده دون سواه. ومن أجلِّ تلك المباحث بحثُ حقيقة الاستغاثة وما يتصل بها من مسائل التوسل والطلب، وهي مما كثر فيه النزاع في المتأخرين، والتبس فيه الحق بسبب اعتماد بعضهم على رواياتٍ ضعيفة أو استحساناتٍ لا تنهض دليلاً في بابٍ توقيفيٍّ جليل كهذا؛ ولأجل ذلك كان من الواجب تحرير معنى الاستغاثة على وفق أصول الشرع: ما كان منها عبادة محضة لا يجوز صرفها إلا لله وحده، وما كان من قبيل الأسباب التي يقدر عليها المخلوق. وقد دلَّ إجماع العلماء على أنّ طلب ما اختصت به القدرة الإلهية -كالشفاء والرزق وتفريج الكربات-من غير الله شركٌ صريح، وأنه لا يُسأل المخلوق إلا ما كان داخلًا في حدود قدرته وطاقته، قال الطوفي: " معلوم عند صغير المسلمين -فضلًا عن كبيرهم-أن المخلوق على الإطلاق لا يُطلَب منه، ولا ينسب إليه فعل ما اختصت القدرة الإلهية به" الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية (ص: 481).

وفي ثنايا هذا البحث يبرز كذلك تحرير جانبٍ دقيق من جوانب العربية، وهو المجاز العقلي، إذ يقع الخلط عند بعض الناس بين الأساليب اللغوية وبين الحقائق العقدية، فيجعلون المجاز سلّمًا لتبرير الاستغاثة الشركية أو صرف الدعاء لغير الله تعالى.

وعليه، فإن هذا البحث يسعى إلى بيان حقيقة الاستغاثة من جهة، وتحرير المجاز العقلي من جهة أخرى، نصرةً للحق وبيانًا لعقيدة التوحيد كما جاءت في الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، ومعلومٌ أنّ إفراد الله تعالى بالدعاء أصلٌ عظيم من أصول التوحيد، بل مما عُلم من الدين بالضرورة؛ إذ شرع الله لعباده أن يدعوه وحده دون سواه، ووعدهم بالإجابة في كل زمانٍ ومكانٍ، على اختلاف ألسنتهم وتنوّع حاجاتهم، قال سبحانه:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}

ومع وضوح هذا الأصل وظهوره، فقد دأب المخالفون قديمًا وحديثًا على إثارة الشبهات حوله؛ فاستدلّ بعضهم بنصوص ضعيفة لا تثبت، أو بكلام متشابه لبعض أهل العلم لا تقوم به حجة، ثم حملوا ذلك الكلام على غير وجهه.

فكثيرًا ما يستشهدون بأقوالٍ صادرة عن عالمٍ وقع في خطأ أو بدعة، أو بنى قوله على أثرٍ ظنّه صحيحًا، ثم لم يلتزم لوازم ذلك القول، ولا ترتّبت عليه عنده نتائج مخالفة لأصول التوحيد، ثم يأتي بعض المتأخرين من أهل الأهواء فيجتزئون كلام ذلك العالم، ويحملونه على إباحة الشرك الصريح، مع أنّ كلامه -في سياقه ومقصوده-لا يدل على ما ذهبوا إليه، ولا يحتمل بحال أن يُحمل على إقرار الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

وسوف نلحق في ختام هذا البحث فصل في بيان عقيدة المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وأهمية معرفتها، وكيف تلاعب بهم الشيطان، والله أسأل التوفيق والسداد.

حقيقة الاستغاثة

الاستغاثة في اللغة: هي طلب الغوث وهو التخليص من شدة أو دفع بلية، ينظر: تاج العروس (314/5)، والرد على البكري (452/2).

وقال الفيومي في المصباح المنير " دعوت الله: أي رغبت فيما عنده من الخير، وأما الاستغاثة فهي طلب الغوث والنصرة، والاستعاذة هي الالتجاء والاعتصام. عاذ به أي التجأ واعتصم"

فالاستغاثة هي: نداء طلب من يخلِّص من شدّة أو يعين على دفع بليّة، فهي نوع من الدعاء.

مثل أن يتوجه زيد من الناس إلى نبي أو ولي فيطلب منه كأن يقول: (اشفني يا عبد القادر)

قال ابن قتيبة في قوله تعالى:﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [البقرة23].

«أي ادعوهم ليعاونوكم على سورة مثله، ومعنى الدعاء ههنا الاستغاثة، ومنه دعاء الجاهلية وهو قولهم: يا آل فلان، إنما هو استغاثتهم» (غريب القرآن43).

وقد كان أهل الجاهلية يستغيثون بأوليائهم ولا يخلصون لله في الدعاء والطلب منه وحده، ويزعمون أنّ هؤلاء الأولياء وسائط بينهم وبين الله وأنّ ذلك لايضر الديانة.

قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "وإلى ربك فارغب" يقول تعالى ذكره: وإلى ربك يا محمد فاجعل رغبتك دون من سواه من خلقه إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. اهـ .

وقال الطبري عن مشركي العرب: "إشراكهم هو جعلهم لله شريكا في عبادته ودعائه، فلا يخلصون له في الطلب منه وحده"

فقد ذكر الطبري عند تفسير قول الله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [يوسف 106] "وإيمانهم بالله هو قولهم: الله خالقنا ورازقنا ومميتنا ومحيينا، **وإشراكهم هو جعلهم لله شريكا في عبادته ودعائه، فلا يخلصون له في الطلب منه وحده،** وبنحو هذا قال أهل التأويل" ثم روى مثل ذلك عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعامر وقتادة وعطاء وجمع.

قال قتادة "لا تسأل أحدا من المشركين من ربك؟ إلا ويقول ربي الله وهو يشرك في ذلك "

وقال " الخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم ثم يشركون بعد ذلك " وقال ابن زيد " ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه وخالقه ورازقه وهو يشرك به . . . ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك: المشركون كانوا يقولون هذا " (تفسير الطبري 13 / 50-51 الدر المنثور 4 / 120 للسيوطي.).

وقال الطبري -رحمه الله-في تأويل قوله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)}"يقول تعالى ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) يقول: **أخلصوا لله عند الشدّة التي نزلت بهم التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودية، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم** (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ) يقول: فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلَّمهم، فصاروا إلى البرّ، **إذا هم يجعلون مع الله شريكا في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أربابا.**

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، قوله:(فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) فالخلق كلهم يقرّون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك". تفسير الطبري -(20 / 60)

وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية "..**أخبر تعالى أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له فهلا يكون هذا منهم دائما"**

وقد وردت الآيات القرآنية الكثيرة الناهية عن الدعاء والاستغاثة بغير الله ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الاحقاف5].

وهذه الآية تقطع من أصلها دعوى أن مشركي الجاهلية كانوا يعبدون حجارةً مجردة لا يقصدون وراءها معنى؛ بل يقرّر القرآن أن حقيقة شركهم أنهم جعلوا الأصنام تماثيل ورموزًا للملائكة والأنبياء والصالحين؛ ولهذا بيّن الله مآلهم يوم القيامة فقال في تتمة الآية:﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وقال سبحانه: "إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ" [فاطر14].

ويدل على ذلك أنّ الله في كتابه نفى نفياً صريحاً أن يكون قد أذن باتخاذ الملائكة أو الأنبياء أربابًا من دونه، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

ومع كون المشركين كانوا يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين، فقد وصف القرآن المدعوين من دون الله بأنهم لا يستجيبون، ولا ينفعون ولا يضرون، ولا يملكون، ولا ينصرون، ولا ينقذون؛ فدلّ ذلك دلالةً قاطعةً على أن مشركي العرب كانوا يدعون الأولياء والصالحين دعاءَ عبادة وكذلك دعاء مسألةٍ وطلبٍ، إذ لا يُنفى السماع ولا الاستجابة ولا النفع والضر إلا عمّن يُتوجَّه إليه بالسؤال والالتماس، ثم حكم القرآن صراحةً على هذا الفعل بأنه شركٌ وضلال.

وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام40].

وقال سبحانه:﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر38].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في رده على ابن جرجيس: (وقال تعالى: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ"، وليست هذه الآية في الأصنام كما يزعمه من لم يتدبر، لأن "وَالَّذِينَ" لا يخبر به إلا عن العقلاء، ولأن الأصنام من الأخشاب والأحجار لا يحلها الموت، فإنها لم تحلها الحياة حتى يحلها الموت، ولأنها لا تبعث يوم القيامة بعث الإنسان ليجزى بما كسبت يداه، ولا يعقل منها شعور بهذا البعث حتى ينفيه الله عنها، وقد قال تعالى: "وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" ،فهذه الآية فيمن يموت ويبعث، كما لا يخفى على من تدبرها، وتأمل قوله تعالى: "وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" وهذا إنما يستعمل فيمن يعقل كما لا يخفى على من له معرفة باللغة العربية، فالحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة).

وقد قرَّر الإمام الشافعي رحمه الله قاعدةً جليّةً في شرك الدعاء، وذلك في سياق بيانه لحكم متعاطي السحر؛ إذ حكم بكفره في حالتين، إحداهما قوله: «إن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرّب إلى الكواكب السبعة، **وأنها تفعل ما يُلتمس منها**، فهو كافر».

نقله ابن كثير عن الإشراف على مذاهب العلماء للوزير ابن هبيرة (147/1).

ونظير هذا التقرير ما ذكره ابن الصبّاغ في حكم الساحر، حيث قرَّر كفره إذا اعتقد التقرب إلى الكواكب، **وأنها تُجيب إلى ما يُقترَح منها**، ونقله الرافعي في العزيز (56/11).

ويدخل في هذا ما قرَّره شهاب الدين القرافي المالكي رحمه الله تقريرًا صريحًا في كتابه الفروق، عند تفريقه بين ما يكون الدعاء فيه كفرًا، وما لا يكون كذلك؛ إذ قال في الفرق (272): «... الثاني: أن تعظم حماقة الداعي وتجرؤه، فيسأل الله تعالى أن يُفوِّض إليه من أمور العالم ما هو مختصٌّ بالقدرة القديمة، والإرادة الربانية، من الإيجاد والإعدام، والقضاء النافذ المحتم؛ وقد دلَّ القاطع العقلي على استحالة ثبوت ذلك لغير الله تعالى، فيكون طلب ذلك طلبًا للشِّركة مع الله تعالى في الملك، وهو كفر...» (الفروق 1406/4).

فالقرافي رحمه الله جعل مناط الكفر في الدعاء هو طلب ما استحال ثبوته لغير الله، مما اختصّت به القدرة الإلهية، وصرَّح بأن هذا الطلب طلبُ شركةٍ مع الله، وأطلق عليه اسم الكفر، ولهذا عدَّ الإمام الذهبي رحمه الله التماسَ مغفرة الذنوب والخطايا من المخلوق شركًا؛ لأن المغفرة من خصائص الله تعالى التي لا يشاركه فيها أحد، قال الإمام الذهبي الشافعي رحمه الله، في ترجمة نفيسة بنت الحسن رضي الله عنها: «... وللجهلة المصريين فيها اعتقادٌ يتجاوز الوصف، ولا يجوز لما فيه من الشرك، ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرة، وكان ذلك من دسائس العبيدية» سير أعلام النبلاء (106/10).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني «وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح لهذه الأصنام، ثم تبعهم من بعدهم على ذلك». وذكر أنهم كانوا يتبركون بدعاء سواع وغيره من الصالحين ويتمسحون بصورته». (فتح الباري 8: 668 – 669).

وقال ابن كثير عند تفسير سورة الزمر آية(8): " (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه) أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له .. إلى أن قال: وفي حال العافية يشرك بالله ويجعل له أندادا "قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار" أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه تمتع بكفرك قليلا وهو تهديد شديد ووعيد أكيد"

قال الطوفي: " معلوم عند صغير المسلمين -فضلًا عن كبيرهم-أن المخلوق على الإطلاق لا يُطلَب منه، ولا ينسب إليه فعل ما اختصت القدرة الإلهية به" الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية (ص: 481).

وعليه؛ فمن سأل مخلوقًا حيًّا قضاءَ حاجةٍ اختصّت بها القدرة الإلهية، أو سأل ميتًا مطلقًا، فقد خالف ما قرّره هؤلاء الأئمة، وناقض أصل التوحيد، ووقع في عين الشرك.

حدّ الشرك في دعاء غير الله عز وجل

اعلم أنّ حدَّ الشرك في دعاء غير الله يتحقق إذا توجَّه الداعي إلى مخلوقٍ بما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، أو تضمَّن دعاؤه إسنادَ علم الغيب إليه، أو اشتمل على نوع تذلُّلٍ وتعظيمٍ لا يجوز صرفه إلا لله وحده، أو تضمَّن طلب قضاء الحوائج من الأموات الذين انقطع عملهم، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن غيرهم.

ومن أبرز حالات الدعاء الشركي ما يلي:

الحالة الأولى: الاستغاثة بالميت مطلقًا، سواء كان ذلك في أمورٍ كان يقدر عليها حال حياته، أو في أمورٍ لا يقدر عليها أصلًا؛ إذ إنّ الميت بعد موته قد انقطع عن العمل والتصرّف، فلا يصحّ بحال توجيه الطلب إليه، ولا سؤالُه كشفَ ضرٍّ ولا جلبَ نفع.

وقد قرّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا الأصل تقريرًا جليًّا فقال: «فالاستغاثة المنفية نوعان: أحدهما الاستغاثة بالميت مطلقًا في كل شيء، والثاني الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق» (الرد على البكري: ص 245).

فهذا الفعل شركٌ صريح وكفرٌ بواح، سواء أكان المستغيث حاضرًا عند قبر الميت، واقفًا عليه، متعلّقًا بشباكه، أو قائمًا عند باب قبّته، أم كان يناديه ويستغيث به من مكانٍ بعيد، تفصل بينه وبينه الصحاري والفيافي والجبال، بل والبحار.

وكلّ ذلك مما لم تجرِ عادةُ الله أن يسمع فيه الحيُّ نداءَ المستغيث، فكيف بالمقبور الساكن تحت الأجداث والجنادل والتراب، المشغول بأمره في البرزخ، حيث القبر إمّا روضةٌ من رياض الجنة أو حفرةٌ من حفر النار؟

وسبب الحكم بالشرك في هذه الاستغاثة يرجع إلى وجهين عظيمين:

الوجه الأول: أن الداعي نادى غير الله تعالى، ووجَّه قلبه وطلبه واستغاثته إلى غيره، طالبًا كشف الضر أو جلب النفع فيما لا يقدر عليه الميت أصلاً.

وهذا هو الدعاء الذي هو العبادة بعينها، ولبّها، ومخّها، وقطب رحاها؛ فصرفه لله توحيدٌ وإخلاصٌ وعبادة، وصرفه لغيره شركٌ وضلالٌ وكفر.

الوجه الثاني: أن المستغيث اعتقد في الميت قدرةً غيبية، وسلطانًا غير محسوس، وتأثيرًا ليس من جنس قدرات البشر ولا من صفاتهم؛ إذ ظنّ أنه يملك إيصال النفع أو دفع الضر بقوةٍ خفيّة لا تُدرك بالأسباب العادية ولا تجري على السنن الكونية.

وهذه الصفة مختصّة بالله تعالى وحده، لا تليق بغيره؛ فإفراد الله بها توحيد، ونسبتها لغيره شركٌ صريح.

وهذان الوجهان ثابتان في جميع صور الاستغاثة بالأموات، وتنفرد صورة الاستغاثة بالميت من مكانٍ بعيد بوجهٍ ثالثٍ زائد، وهو: أن الداعي قد نسب إلى الميت علم الغيب، والسمع والبصر المحيطين؛ إذ لا يُتصوَّر سماع النداء البعيد إلا مع هذه الصفات، وهي من خصائص الربوبية التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى. انظر كتاب صيانة الإنسان للسهسواني.

الحالة الثانية: أن يتوجّه الداعي بطلبه إلى مخلوقٍ حيّ، لكنه إمّا غائب غير حاضر، أو حاضر غير قادر.

وهاتان الصورتان شركٌ صريح.

الصورة الأولى: أن يسأل الحيَّ الغائبَ ما يقدر عليه لو كان حاضرًا؛ كأن يطلب منه تفريج كربةٍ مالية، أو إطعام جائع، أو كسوة عارٍ، أو إنقاذه من هلكةٍ وقع فيها.

فهذه الصورة تنطوي على محاذير عقدية، منها:

إثبات علم الغيب لغير الله؛ إذ لا يُتصوَّر توجّه الطلب إلا مع اعتقاد علم المدعو بحال الداعي.

وإثبات سماع النداء والاستغاثة عن بُعد، وهو ما يقتضي سمعًا محيطًا شاملًا لا يختصّ بمكانٍ دون مكان، ولا بحالٍ دون حال.

الصورة الثانية: أن يسأل الحاضرَ ما لا يقدر عليه أصلًا؛ كأن يطلب منه شفاء مريض، أو رفع بلاءٍ مقدّر، أو إهلاك عدو، أو بسط الرزق، بل قد يتجاوز ذلك إلى طلب هداية القلوب ومغفرة الذنوب، وهنا يعتقد الداعي –ضرورةً– أن المدعو يملك قدرةً فوق قدرات البشر، سواء زعم أن هذه القدرة مستقلة في التأثير، أو ادّعى أنها سببٌ وواسطةٌ وشفيعٌ عند الله.

وهذا هو عين ما كان عليه مشركو قريش في أصنامهم؛ لم يعتقدوا أنها تخلق أو ترزق، وإنما جعلوها وسائط وشفعاء، كما قال الله تعالى:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾[يونس: 18].

وقد نصّ على هذا المعنى غير واحد من أهل العلم، ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله، كما في تعليقاته على كتاب صيانة الإنسان.

وهذه الصورة وقع فيها كثير ممن ينتسب إلى الإسلام ومن مشركي الجاهلية الأولى ومن أهل الكتاب لاسيما النصارى، والحكايات في الاستغاثات بالغائبين الذين يعتقد فيهم كثيرة جداً، وقد تقضي حوائجهم ويغاثون ويرون الشيخ الذي استغاثوا به؛ وذلك أنّ الشياطين يفعلون معهم مثل ما يفعلون مع مشركي الجاهلية والنصارى وغيرهم حيث يرى أحدهم شيخاً يحسن الظن به ويقول له: أنا الشيخ فلان ويتسمى باسم المستغاث به، وربما يغيث من استغاث به ويقضي حاجته، وهذا واقع موجود اعترف به كبار المحققين.

فقد ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله-هذا الأمر ثم قال: [وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين.

وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان، وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم...]. وانظر قاعدة في التوسل: (154-155)، والجواب الصحيح: (1/319-320)، والرد على البكري: (48-51)، والصفدية: (2/292)، والفتاوى: (17/457).

الحالة الثالثة: أن يسأل الميت أن يدعو الله له. وهذه لها صورتان:
الصورة الأولى: أن يسأل ميتاً عند قبرهِ وباب قبته ومشهده أن يدعو الله له.
كالذي يفعله زوار القباب والأضرحة والمشاهد، يقول أحدهم: يا أيها الولي الفلاني ادع الله لي أن يفعل بي كذا وكذا، وقد يظن أحدهم أن هذا مثل أن يسأل أحدهم في حياته فلا فرق عنده بين الحياة والموت.
فهذه الصورة قد اختلف العلماء في حكمها؛ فذهب بعضهم إلى تكفير فاعلها والحكم عليه بالشرك الأكبر، وذهب آخرون إلى أنّها بدعةٌ منكرةٌ شنيعة، ومن وسائل الشرك وذرائعه، وبابٌ يُفضي –غالبًا– إلى دعاء الميت نفسه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله.
وقد يرتقي الحكم عند من يراه بدعة منكرة ولم يُكفّر ابتداءً إلى الشرك الأكبر في عدة مواطن، منها:
الموطن الأول: إذا قصد الداعي من صاحب القبر الشفاعة والوساطة الشركية على المعنى الذي كان عليه أهل الجاهلية، الذين قال الله فيهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، فمن أثبت للأنبياء، أو لغيرهم من الصالحين، وسائطَ بينهم وبين الله تعالى على وجهٍ يشبه الحُجّاب والوزراء بين الملك ورعيته؛ بحيث يعتقد أنّ هؤلاء هم الذين يرفعون إلى الله حوائج الخلق، تشبيهًا لهم بوسائط الملوك الذين تُقضى الحاجات عن طريقهم، ويشفعون بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، فمن أثبت الوساطة على هذا الوجه فقد جعل لله أندادًا، وشبّه الخالق بملوك الدنيا المخلوقين، ومن شبّه الله بخلقه فقد أشرك.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى سياق حديثه عن اتخاذ الوسطاء: "وإن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه -كالحجاب الذين بين الملك ورعيته -بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه؛ فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم؛ فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله؛ كما أن الوسائط عند الملوك: يسألون الملوك الحوائج للناس؛ لقربهم منهم والناس يسألونهم أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك؛ أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج. فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه: فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أندادا" مجموع الفتاوى 1/130:121.
وقال الإمام ابن كثير في تفسير قول الله تعالى:﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾
"وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثة وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد الله وحدة لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عنده بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ((فلا تضربوا لله الأمثال)) تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا"

ومن جعل قبول الشفاعة متوقفًا على مجرد جاه الشافع ومنزلته، أو اعتقد أن الشافع يُلزِم الله بشفاعته كما يُلزَم الملوك بشفاعة خاصّتهم، فقد وقع في الشرك الصريح؛ إذ قيَّد مشيئة الله بإرادة المخلوق، وجعل على الله حقًّا لأحدٍ من عباده، وهذا تنقُّص لربوبيته، ومشابهةٌ بيّنة لعقيدة المشركين في شفعائهم.

فالشفاعة ملكٌ خالص لله وحده، لا تكون إلا بإذنه، ولا تُقبل إلا برضاه، ولا تنفذ إلا حيث شاء؛ فمن زعم أن لأحدٍ من الخلق شفاعةً مستقلّة، أو شفاعةً توجب على الله قضاء المطلوب، فقد ناقض التوحيد من أصله.

ولهذا لم تُقبل شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أمه، ولم يؤذن له أن يستغفر لبعض المنافقين، ولم تُقبل شفاعة إبراهيم عليه السلام في أبيه، ولا شفاعة نوح عليه السلام في ابنه؛ مع كونهم صفوة الخلق، وأعظمهم جاهًا ومنزلةً عند الله.

وإنما كان المانع من قبول الشفاعة عدم رضا الله عن المشفوع لهم لثبوتهم على الكفر، فدلّ ذلك دلالةً قاطعة على أن المرجع في الشفاعة إلى مشيئة الله وحده، لا إلى إرادة الشافع.

الموطن الثاني: إذا سأل الميت عند قبره أن يدعو الله له، واقترن ذلك بغاية التذلّل والخضوع والتعظيم القلبي لهذا الميت، فإنّه بهذا يصير شركًا؛ لأنّ غاية الذل والخضوع والتعظيم هي حقيقة العبادة فلا يجوز صرف ذلك إلا لله وحده، فمن فعل ذلك فقد أشرك به سبحانه.

الصورة الثانية: أن يُسأل الميّتُ أن يدعوَ اللهَ للداعي وهو بعيدٌ عن قبره.

وهذه الصورة شائعة بين من يتوجّهون بالدعاء إلى الأموات؛ إذ يقع أحدهم في كربٍ أو شدّة، فينادي الوليَّ المزعوم، فيقول: يا فلان، يا وليّ الله، ادعُ الله أن يرفع عني كذا، أو أن يعطيني كذا، وهؤلاء –من حيث لا يشعرون أو مع شعورهم– قد وقعوا في الشرك؛ لأنهم نسبوا إلى الميت ما لا يكون إلا لله وحده، إذ اعتقدوا فيه علم الغيب بحالهم، وسماع النداء والاستغاثة من مكانٍ بعيد، وهاتان الصفتان من خصائص الربوبية التي لا يجوز صرفها لمخلوقٍ كائنًا من كان، حيًّا أو ميّتًا؛ فمن أثبتها لغير الله فقد نازع الله في حقه.

وقد نبّه على هذا المعنى الشيخ محمد إسماعيل الدهلوي رحمه الله، فذكر ظنَّهم هذا، ثم ردّ عليهم بقوله: «وهذا باطل؛ فإنهم وإن لم يُشركوا عن طريق طلب قضاء الحاجة، فإنهم أشركوا عن طريق النداء؛ إذ ظنّوا أن هؤلاء يسمعون نداءهم عن بُعد كما يسمعون نداءهم عن قُرب» (رسالة التوحيد، ص: 66–67).

واعلم أنّ الدعاء يدخل تحته: الاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة؛ فالقول فيها واحدٌ من جهة الحكم والمعنى؛ إذ كلها من أنواع الطلب والدعاء، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الاستعاذة، والاستجارة، والاستغاثة من نوع الدعاء أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة» مجموع الفتاوى 227/15.

وبعد أن تبيّن أنّ الاستغاثة بالمخلوقين وطلب ما هو من خصائص القدرة الإلهية؛ كإنزال المطر وشفاء المريض وإغاثة الملهوف وسعة الأرزاق ونحو ذلك شرك صريح بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، وأنّ المخلوق لا ينسب إليه فعل ما اختصت به القدرة الإلهية، كما قرره الطوفي وغيره، ولا يسأل المخلوق إلا فيما يقدر عليه بطاقته البشرية المعتادة، فلا يقال: يا محمد اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو أحيني، أو أعطني مالًا وولدًا؛ لأن ذلك شرك.

كما تبيَّن أن طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم عند زيارة قبره لا يخرج ـ في أقلّ أحواله ـ عن كونه بدعةً منكرة، ومن وسائل الشرك، قال الحافظ ابن عبد الهادي في الصارم المنكي في الرد على السبكي: أما دعاؤه هو صلى الله عليه وسلم وطلب استغفاره وشفاعته بعد موته: فهذا لم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين ـ لا من الأئمة الأربعة ولا غيرهم ـ بل الأدعية التي ذكروها خالية من ذلك. هـ.

وعليه، فإن ما ذكره بعض الفقهاء المتأخرين في آداب الزيارة، من جواز طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم عند زيارة قبره، إنما يندرج في باب الخطأ العلمي الذي يحتاج إلى استدراك وتصحيح، وذلك من جهتين:

الأولى: أنهم بنوا هذا القول على آثار ضعيفة موقوفة ومقطوعة لا تقوم بها حجة، لا سيما في بابٍ هو من أدقّ أبواب الدين وأخطرها، وهو باب العبادة والتوحيد.

والعجب أنّ البعض يمنعون الاحتجاج بأحاديث الآحاد الصحيحة في مسائل الاعتقاد، ثم يستدلون هنا بآثار واهية لا تثبت سندًا ولا دلالة!

ومع ذلك، فإن هذا القول يفتح باب الذرائع إلى الشرك الأكبر؛ إذ إن الناس لا يقفون عند حدّ طلب الدعاء المجرد من الميت، بل يجرّهم ذلك إلى الغلو، ثم إلى دعاء المقبور، ثم إلى الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، كما هو الواقع المشاهد في أحوال القبوريين قديمًا وحديثًا. وسدّ هذا الباب وحسم مادته من أعظم مقاصد الشريعة، لما يفضي إليه من انتقاض أصل التوحيد.

والثانية: أن باب التوسل بابٌ توقيفي محض، لا يثبت منه شيء إلا بدليل صحيح صريح من الشرع، إذ لا يجوز إحداث وسيلة يُتقرّب بها إلى الله تعالى بلا برهان؛ فالتقربات مبناها على الاتباع لا على القياس ولا على الاستحسان.

وقد وقع الخطأ هنا من جهة قياس حال الميت على حال الحي في طلب الدعاء، مع قيام الفارق المؤثر شرعًا وعقلًا؛ فإن طلب الدعاء من الحي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف، لقدرته على السماع والدعاء والاختيار، بخلاف الميت الذي انقطع عمله، ولم يثبت في الشرع أنه يُسأل الدعاء، ولا نُقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم –مع شدة حاجتهم وحرصهم على الخير– أنهم فعلوا ذلك، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

قال ابن تيمية-رحمه الله-: " الْقِسْمُ الثَّانِي " وَهُوَ أَلَّا تَطْلُبَ مِنْهُ الْفِعْلَ وَلَا تَدْعُوَهُ وَلَكِنْ تَطْلُبُ أَنْ يَدْعُوَ لَك. كَمَا تَقُولُ لِلْحَيِّ : أُدْعُ لِي وَكَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - يَطْلُبُونَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلة وَسَلَّمَ الدُّعَاءَ فَهَذَا مَشْرُوعٌ فِي الْحَيِّ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَمَّا الْمَيِّتُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ فَلَمْ يُشْرَعْ لَنَا أَنْ نَقُولَ: أُدْعُ لَنَا وَلَا اسْأَلْ لَنَا رَبَّك وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ وَلَا وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ" مجموع الفتاوى 27/75.

ومما ينبغي أن يُعلم أنّ طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته أطلق عليه بعض الفقهاء المتأخرين "استغاثة"، وهذا إطلاق غير دقيق، بل خاطئ من جهة اللغة والشرع؛ إذ الصواب أن يُسمّى: توسلًا بطلب الدعاء من الرجل الصالح، لا استغاثة، فإن التوسل بطلب الدعاء من الرجل الصالح شيء، والاستغاثة شيء آخر، فالتوسل موجهاً إلى الله في الحقيقة، والاستغاثة من حيث الأصل نداء مباشر موجهاً للمستغاث به، فالتوسل طلب به، والاستغاثة طلب منه.

ومع ذلك، فعامة هؤلاء الفقهاء الذين يوسّعون دائرة المصطلح ويُطلقون "الاستغاثة" على طلب الدعاء من الصالحين، فإنهم يُنكرون أشد الإنكار الطلبَ المباشر لما هو من خصائص الله، ويرونه شركًا أكبر مخرجًا من الملة؛ كالطوفي والعراقي، فلا يجيزون قول: يا محمد اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو أحيني، أو أعطني مالًا وولدًا؛ لأن ذلك شرك بإجماع، وسيأتي – بإذن الله – بيان كلامهما ونصوصهما الصريحة في التفريق بين الأمرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فلفظ الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به، وقول القائل استغثت فلانا واستغثت به معنى طلبت منه الإغاثة لا بمعنى توسلت به فلا يجوز للإنسان الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله." ([الاستغاثة في الرد على البكري]).

فالمستغيث بالشيء طالب منه، سائل له، متوجه إليه، أما المتوسل بالشيء فلا يدعوه ولا يسأله ولا يطلب مباشرة منه، وإنما يسأله أن يسأل الله، ففيه اعتراف ضمني بعجز الوسيلة، فالمستغاث به مدعو مقصود بالطلب، والمتوسل به غير مدعو أصلا، وإنما الدعاء متوجه إلى الله وحده، وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- أن البكري من الغلاة الذين لم يوافقه أحد من علماء زمانه، بل ذكر أنه طاف بجوابه على أهل العلم طالبًا منهم أن يوافقوه على الاستغاثة بالأولياء فلم يوافقوه، يقول ابن تيمية: "وقد طاف بجوابه على علماء مصر ليوافقه واحد منهم فما وافقوه، وطلب منهم أن يخالفوا الجواب الذي كتبته فما خالفوه، وقد كان بعض الناس يوافقه على جواز التوسل بالنبي الميت؛ لكنهم لم يوافقوه على تسميته استغاثة، ولا على كفر من أنكر الاستغاثة به، ولا جعلوا هذا السبب، بل عامتهم وافقوا على منع الاستغاثة به بمعنى أن يطلب منه ما لا يقدر عليه" الاستغاثة والرد على البكري (ص: 284)

ومن زعم أن التوسل استغاثة فقد غيّر مدلولات الألفاظ، فمناط الحكم هو: من هو المدعو؟ ومن هو المسؤول الذي تطلب منه الحوائج؟

وقد فصّل شيخ الإسلام رحمه الله حكم ما يفعله الناس عند القبور أو مع الصالحين فقال: "من يأتي إلى القبر أو إلى رجل صالح ويستنجده فهذا على ثلاث درجات: إحداها: أن يسأل حاجته، مثل أن يقول: اغفر لي ونحوه، فهذا شرك كما تقدم.

الثانية: أن يطلب منه أن يدعو له لأنه أقرب إلى الإجابة، فهذا مشروع في الحي، وأما الميت فلم يشرع لنا أن نقول له: ادع لنا، ولا: اسأل لنا ربك، ولم يفعل ذلك أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا ورد في حديث؛ بل في الصحيح أن عمر رضي الله عنه استسقى بالعباس، ولم يأت قبر النبي صلى الله عليه وسلم...

وأما القسم الثالث: وهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان، أو بحرمة فلان عندك، افعل لي كذا وكذا. فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء" المستدرك على مجموع الفتاوى(1/ 18)

فالدرجة الأولى: أن يسأله ما لا يقدر عليه كالمغفرة والرزق ونحو ذلك، وهذا شركٌ أكبر لا يختلف عليه أحد.

والدرجة الثانية: أن يطلب الدعاء من صاحب القبر أو يطلب منه الشفاعة إلى الله، وكثير من المتأخرين يجوز ذلك الصنيع مع زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم استناداً إلى آثار ضعيفة مثل حكاية العتبي ومالك الدار احتجوا بها في هذا المعنى.

وهذه الدرجة ليست شركًا صريًحا عند بعض أهل العلم وإنما هي بدعة منكرة ووسيلة من وسائل الشرك، والعلّة عندهم أنّ السائل لم يسأل الميت ما هو من خصائص الألوهية، بل سأله أن يسأل الله، ففيه اعتراف ضمني بعجز الميت.

الدرجة الثالثة: وهي التوسل بذوات الأنبياء والصالحين وجاههم إلى الله، والقول الصحيح فيها: أنها بدعة على المختار من كلام أهل العلم، حيث لم يثبت عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء.

وكلامُ فقهاءِ المتأخّرين –في أكثره ومعظمه– لا يخرج عن المرتبتين الثانية والثالثة من التقسيم المتقدّم، وهما: طلب الدعاء من صاحب القبر، والتوسّل بالجاه. وقد يُطلق بعضُهم على هاتين الصورتين اسمَ الاستغاثة اصطلاحًا لا حقيقةً، على وجهٍ توسّعيٍّ في العبارة، لا على المعنى الشرعي الذي هو طلب الغوث ممن لا يملك الغوث.

وعليه، فهؤلاء لم يجوِّزوا الاستغاثة بالأولياء على وجهها الشركي أصلًا، وإنما جوَّزوا صورةً من التوسّل البدعي أو التشفع البدعي، لا طلب الحوائج منهم، ولا الاستغاثة بهم فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

ويشهد لذلك تصريحاتُهم التي تقطع مادة الاشتباه، وفي مقدّمتهم الطوفي؛ فإنه –مع كونه ممّن يوسّع في إطلاق لفظ الاستغاثة على التشفع البدعي– صرّح تصريحًا لا يحتمل تأويلًا بأنّ الاستغاثة بالمخلوق فيما اختصّت به القدرة الإلهية شركٌ بإجماع المسلمين، وأنه لا يجوز أن يُطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

قال الطوفي –في حكاية قول المعترض والجواب عنه–: «الثاني: أن استغاثة صاحب موسى به كان في أمر يمكن موسى فعله، وهو إعانته على خصمه، وهو أمر معتاد، ونحن إنما نمنع من الاستغاثة بالمخلوق فيما يختص فعله بالله عز وجل؛ كالرحمة والمغفرة والرزق والحياة ونحو ذلك، فلا يقال: يا محمد اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو أحيني، أو أعطني مالًا وولدًا؛ لأن ذلك شرك بإجماع» الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية، ص: 480.

وجاء تعقيب الطوفي: "وعن الثاني: أن ما ذكرتموه أمرٌ مجمع عليه، معلوم عند صغير المسلمين -فضلًا عن كبيرهم-أن المخلوق على الإطلاق لا يُطلَب منه، ولا ينسب إليه فعل ما اختصت القدرة الإلهية به" المصدر السابق، ص: 481.

وهذا النصّ صريحٌ في أن الطوفي نفسه لا يُدخل المجاز العقلي في باب التوحيد والدعاء، ولا يجوّز بحالٍ من الأحوال دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله، بل عدّ ذلك شركًا بإجماع المسلمين.

فكيف يُجعل كلامه –وكلام أمثاله– ذريعةً لإباحة الاستغاثة بالأموات، ودعائهم عند القبور، وطلب تفريج الكربات منهم؟!

وكذلك فإنّ أبا زرعة العراقي ورد في فتاواه تحريم الطلب من الأولياء وسماه مُنكرًا، فقال رحمه الله: "سُئلتُ عمن يزور الصالحين من الموتى فيقول عند قبر الواحد منهم: يا سيدي فلان أنا أستجير بك أو متوسل بك أن يحصل لي كذا وكذا"، فأجاب بعد أن بيَّن أن زيارة القبور مندوبة: "ولا امتناع في التوسل بالصالحين، فإنه ورد التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وبصلحاء أمته وأما قوله: (أنا أطلب منك أن يحصل لي كذا وكذا) فمُنكر، فالطلب إنما هو من الله تعالى، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة أو بأصحابها أحياءً وأمواتا" فتاوى الفقيه ولي الدين أبي زرعة العراقي (ص: ١٦٦-١٦٨).

والعراقي -رحمه الله-يوافق السبكي في مسألة الاستشفاع بالموتى، ومع ذلك يُنكر إنكارًا صريحًا الاستغاثة بالأولياء عند القبور وطلب الحوائج منهم، وهذا التفريق منه قرينةٌ ظاهرة ودلالةٌ بيّنة على أن المسألتين عنده متباينتان، والله أعلم.

ولا ريب أنّ التعبير بقول: «أستغيث بالرسول» غير جائزٍ شرعًا، ولو ادّعى أنّ مراده الاستغاثة بدعائه لا منه مباشرة؛ لأنّ الشريعة المطهَّرة جاءت بسدّ ذرائع الشرك، وبالمنع من الألفاظ المجملة الموهِمة التي تحتمل معنى باطلًا، ولو قصد بها قائلها معنى صحيحًا في زعمه، وقد دلّ على هذا الأصل قوله تعالى: {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا} [البقرة: 104]، فنهى الله سبحانه عن لفظٍ كان يُحتمل فيه معنى فاسد، مع إمكان التعبير عن المقصود بلفظٍ صريحٍ سليمٍ لا إيهام فيه، فكان هذا أصلًا عامًّا في منع الألفاظ المحتملة للباطل في أبواب الاعتقاد والعبادة.

وإذا أردتَ بيان ذلك بوضوح وجلاء، فانظر إلى كيفية تعامل النبي عليه الصلاة والسلام مع واقعة قول الجارية: "وفينا نبيّ يعلم ما في غد"، فنهاها النبي عليه الصلاة والسلام عن قولها، وقال لها: «لا تقولي هذا، وارجعي إلى ما كنتِ تقولين» مع أنه قد يكون لكلامها محمل، وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام قد يعلم بعض الغيبيات بإطلاع الله له عليها، لكن لما كان ذلك قد يكون ذريعة إلى الفهم المغلوط، وإلى اختلاط مقام النبي عليه الصلاة والسلام بما يختصّ به الله تعالى نهى عنه لسد هذا الباب؛ حماية لجناب التوحيد، وحسما لمادة الشرك.

شبهة المجاز العقلي

واعلم أنّ من أعظم الشُّبه التي تسللت إلى القبوريّة، فحملتهم على تجويز الاستغاثة بغير الله تعالى، شبهةَ المجاز العقلي في الإسناد؛ فقالوا: الْـمُخاطِبَ لأهل القبور إنما قصد أنهم مُتسببون مُكتسبون أي: أن النبي أو الولي الْـمُخاطب سيشفع أو يدعو لهذا الشخص، فالمستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم والصالحين هو في حقيقة الأمر مستغيث بالله تعالى، متشفِّع بالنبي صلى الله عليه وسلم، طالب منه الدعاء، وأُسْنِد الفعل إلى الواسطة من باب إسناده إلى السبب، كما في قولهم: بنى الأمير القصر، وأنبت الربيع البقل، والقرينة في حالة الاستغاثة قرينة عقلية، وهي كون القائل موحّدًا؛ فإنّ هذا كافٍ في حمل كلامه على المجاز في الإسناد، أي: كن سببًا في ذلك بشفاعتك ودعاء الله لي.

ودعوى المجاز العقلي في هذا الباب باطلة ويُجاب عنها من وجوهٍ متعددة:

أولاً: أنّ أصلَ ضلالهم في هذه المسألة راجعٌ إلى اعتقادٍ فاسدٍ في باب الأفعال، وهو ما قرّره الأشاعرة في مسألة الكسب؛ حيث نفوا حقيقة الفعل عن العبد، وزعموا أنّ الفاعل على الحقيقة هو الله تعالى وحده، وأنّ ما أُضيف إلى العباد إنما هو إضافةٌ مجازية.

جاء في كتاب صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان: "وإسناد الإغاثة إلى المخلوق فيما يقدر عليه حقيقي، وتلك القدرة إنما تكون باعتبار العمل والكسب لا باعتبار الخلق والإيجاد، ألا ترى أن إسناد الصلاة والصوم والزكاة والحج ونحوها من الأعمال الحسنة، وإسناد الزنا والسرقة والكذب والخيانة ونحوها من الأعمال السيئة، وإسناد الأكل والشرب واللبس وجماع المنكوحة ونحوها من الأعمال المباحة -إلى العباد إسناد حقيقي؟ وليست القدرة عليها باعتبار الفعل والكسب دون الخلق والإيجاد، فإن الخالق لأفعال العباد كلها هو الله تعالى عند أهل السنة والجماعة". صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان -(ج 1 / ص 202)

ومن هذا الأصل الفاسد نشأت دعوى المجاز العقلي الإسنادي، إذ جعلوه ضرورةً عقلية لتصحيح نسبة الأفعال إلى غير الله، مع نفي حقيقتها عن المخلوق.

فهذا الأصل مصادمٌ لصريح النصوص الشرعية، ولإجماع السلف، ولما تقرّر في الفطرة والعقل؛ إذ قد دلّ الكتاب والسنة دلالةً قطعية على إثبات أفعال العباد حقيقةً، وإسنادها إليهم على جهة الحقيقة لا المجاز، مع إثبات كون الله تعالى خالقًا لهم ولأفعالهم، من غير تناقض ولا اضطرار إلى تأويلٍ مجازي.

فالأفعال تُضاف إلى العباد إضافةَ حقيقةٍ وكسبٍ واختيار، وتُضاف إلى الله تعالى إضافةَ خلقٍ وتقدير، كما قال سبحانه:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

وبهذا يتبيّن أنّ إثبات خواصِّ الأشياء وتأثير الأسباب بإذن الله أصلٌ شرعيٌّ مقطوعٌ به، لا يحتاج إلى تكلّف مجاز، ولا إلى نفي حقائق الأفعال عن المخلوقين.

فهناك فرقٌ جليٌّ بين فعلٍ ينشأ عن إرادة وقدرةٍ بشريةٍ حقيقية أودعها الله في العبد، فيكون العبد فيه فاعلًا على جهة الحقيقة، وبين فعلٍ لا ينشأ عن قدرته ولا يدخل تحت اختياره، فلا يصح نسبته إليه لا حقيقةً ولا حكمًا.

ولهذا لا يجوز نفيُ الفعل عن العبد بإطلاقٍ بدعوى أن الله هو الخالق؛ فإن هذا الإطلاق باطل شرعًا وعقلًا.

فلا يُقال: لم ينصر الصحابةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ولا: لم يُغِث موسى عليه السلام الإسرائيليَّ، ولا: لم يتزوج فلان، ولا: لم يأكل، بحجة أن الله هو الخالق؛ لأن هذه الأفعال وقعت منهم عن اختيارٍ وقدرةٍ جعلها الله فيهم، فهي أفعالهم حقيقةً، مع كون الله تعالى خالقهم وخالق أفعالهم، وهذا هو مقتضى مذهب أهل السنة والجماعة.

وإنما يُنْفَى الفعل عن العبد إذا وقع بغير اختيارٍ ولا قصد، كما في قوله صلى الله عليه وسلم في الصائم الناسي: «إنما أطعمه الله وسقاه»

فنفى النبي صلى الله عليه وسلم نسبة الفعل إلى العبد؛ لكونه غيرَ مقصودٍ ولا مكتسب، فدلّ ذلك على أن الفعل غير الاختياري لا يُنسب إلى العبد، بخلاف الفعل الاختياري، فإنه يُنسب إليه نسبةَ حقيقةٍ ولا يجوز نفيه عنه.

ومثل هذا ما يتعلق بمعجزات الأنبياء؛ فإنها ليست ناشئةً من قدرتهم البشرية، وإنما هي خوارق للعادات يجريها الله تعالى على أيديهم تأييدًا لهم. ولهذا لم ينسب الأنبياء أفعال المعجزات إلى أنفسهم، بل نسبوها إلى الله وحده. قال الخليل إبراهيم عليه السلام: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} فلو كان إحياء الموتى حاصلًا لغير الله على الحقيقة لبطل استدلال إبراهيم، ويدل على ذلك أيضًا أنّ الله سبحانه لمّا أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا الميت ببعضها، قال بعد ذلك: {كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى} فنسبه إليه سبحانه، وهذا نبي الله ابراهيم عليه السلام كان يدعو ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وهو سبحانه الذي فعل الإحياء بقدرته وإرادته، وإنما أمر إبراهيم أن يدعهن يأتينه سعياً، فالمعجزة عبارة عن مَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِي أنبيائه ورسله مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، لذا قال سبحانه: "إنما الآيات عند الله".

وقد اعتمد بعض هؤلاء على تفسيرٍ خاطئ لآياتٍ وأحاديث ورد فيها إضافة بعض الأفعال إلى المخلوقين، وهي بلا شك جنسٌ آخر غير ما أضافه الله تعالى إلى نفسه، متوهمين أن ذلك يبرر حمل استغاثاتهم بغير الله على المجاز العقلي.

ومن ذلك استدلالهم بقوله تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} و{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى:52). وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 62]، وقوله تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [الأنفال: 72] وقوله تعالى: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} [القصص: 15]

وفي هذه الآيات القرآنية لم ينسب الله سبحانه شيئًا من أفعاله الخاصة به سبحانه إلى أيٍّ من المخلوقين، فإنّ ما أضافه الله إلى نفسه المقدسة غير ما أضافه إلى بعض مخلوقاته، فهذا جنس وذاك جنس غيره تمامًا، ونسبة النصر والتأييد والغوث إلى المخلوق في هذه الآيات القرآنية نسبة حقيقية ليست مجازية، فهي صادرة عنهم بقدرتهم التي وهبها الله لهم، وليس مقصودًا بها فعل الله المباشر، والاتفاق في الاسم لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة أو المسمى فإنما هو اشتراك في الاسم المطلق، وليس في الإضافة والتخصيص.

ثانياً: أنّ أصل القول بالمجاز العقلي والإسنادي في مسألة الاستغاثة بالأموات عندهم مبني على جواز الاستشفاع بالأموات وطلب الدعاء منهم ولا دليل عليه شرعاً، ومما يؤكد ذلك أنّ أهل السنة مجمعون أنّ للنبي صلى الله عليه وسلم أنواعاً من الشفاعة يشفع بها، ولم يذكروا منها طلبها منه في قبره، بل كلها يوم القيامة، فينبغي تأمل هذا، ومن خالف إجماع أهل السنة فليس منهم.

وقد بيّن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى على اختصاص شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم بالآخرة، فقال في مقدمة الرسالة: «المرفوعُ ذِكرُه مع ذِكرِه في الأولى، والشافعُ المشفَّعُ في الأخرى».

فجعل رحمه الله شرف الذِّكر في الدنيا، وميزة الشفاعة في الآخرة، وهو تقسيمٌ دقيقٌ يدل على أن الشفاعة المخصوصة للنبي صلى الله عليه وسلم إنما تكون يوم القيامة، ويؤكّد هذا المعنى ما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا أولُ شافعٍ وأولُ مشفَّع» رواه مسلم (59/7).

وكذلك لو كان الميت يدعو لمن سأله، كما يقدر عليه حياً، فلأي معنى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره مسجداً؟! فلو كان دعاؤه لهم مقدوراً مستديماً بعد موته صلى الله عليه وسلم لما نهى عن اتخاذ القبور مساجد، لأنّ لازم الجواز أن تتخذ القبور مساجد يدعى عندها كما يدعو المسلمون في المساجد.

وإذا تبين بطلان هذا السبب شرعاً، سقط الاستدلال بالمجاز العقلي والإسنادي في مسألة الاستغاثة، فما بني على باطل فهو باطل.

ثانياً: إنّ الأمثلة التي ضربوها للمجاز العقلي مثل أنبت الربيع البقل هي في الأمور الظاهرة التي تكون العلاقة والقرينة واضحة، وتكون تلك القرينة من الأسباب الظاهرة ولها تعلق ومباشرة حقيقية، فأما في الأمور التي يكون التأثير فيها بالقوة الغيبية وبدون مباشرة الأسباب الظاهرة فلا يمكن قياس ذلك على تلك الأمثلة، وذلك لعدم المماثلة المشروطة في القياس.

والمشكلة الرئيسية عند هؤلاء أنهم لم يفرقوا بين الإسناد إلى الأسباب الظاهرة التي هي موجودة في كلام العرب وهي محمولة على السببية، وهو الذي سموه بالمجاز العقلي، وبين الإسناد إلى الأسباب الباطنة التي تأثيرها غير مباشر ويكون بقوة غيبية وتأثير غيبي.

ولنضرب الأمثلة على ذلك، فإذا قال القائل أنبت الربيع البقل يكون القائل قد أسند الإنبات إلى غيره تعالى وهو الربيع، وذلك لأنه سبب ظاهر ومباشر، فهنا الحمل على المجاز واضح وواقع في كلام الناس. والشرع أباح مثل هذا؛ لأن استحضار السببية عند التكلم-قريب لا لبس فيه وأما إذا قال القائل: رزقني سيدي فلان الولد وأراد أنه تسبب وتوسط له في ذلك، فقد أسند إلى سبب غير مباشر وإلى تأثير غيبي وليس هناك سبب ظاهر حصل من فلان حتى يحمل الكلام على المجاز العقلي، فهذا هو الفرق بين المثالين.

ولكن هؤلاء خلطوا وجعلوا الحكم واحداً، مع أن استحضار نية السببية في المثال الثاني غير واضح وليس قريب المأخذ من اللفظ.

قال الإمام الدهلوي -رحمه الله-: [وكذلك الرزق والشفاء على وجهين: فقولنا: رزق الأمير الجند المفهوم منه أنه فرق الأموال التي جمعها بالقوة الناسوتية، وقولنا: (شفى الطبيب المريض) اجتهد كل الجهد، وسعى كل السعي بفكره الذي يشابه فكر المريض بتعيين دواء فيه حراً وبرداً وغيرهما من خواص العالم فأعقبه الصحة.

وقولنا: رزق الله تعالى خلقه، وشفى الله عبده، أنه أراد أن يجتمع إليه المال من غير ملابسة بالأعمال الناسوتية، ولا مشابهة بالناسوتية فاجتمع أولاً أو أن يزول مرضه ويحدث فيه الصحة فكان كما أراد] (الدور البازغة (ص:123)).

فالفرق بين المثالين أن الأول يكون تأثير المسند إليه بقوة مناسبة لإنسانيته وبشريته وهي القوة المباشرة الظاهرة، وأما الثاني فيكون تأثير المسند إليه بقوة غير مناسبة لبشريته وهي القوة الغيبية وبدون اتصال مباشر ظاهر للأعين والأبصار، والأمثلة التي يدور النقاش فيها من باب المثال الثاني لا الأول كما هو واضح، ويؤيد هذا الوجه ما يلي:

إنّ علماء البلاغة اشترطوا في القرينة أن تكون قريبة المأخذ وواضحة، وأن يكون الشبه بين الطرفين جلياً.

وقالوا: إن الأسد لا يطلق على الرجل أبخر الفم مع اشتراكهما في البخر لأن تلك القرينة بعيدة وغير قريبة المأخذ (انظر التلخيص: (335)، وترجيح أساليب القرآن: (156))، فلا يتبادر إلى الذهن عند إطلاق الأسد على الرجل أن المراد من الإطلاق أنه أبخر الفم بل الذي يتبادر أنه شجاع.

ثم (إن العلماء القائلين بالمجاز لم يقولوا بدخول المجاز والتأويل في كل كلام بل قالوا: (المجاز والتأويل لا يدخل في المنصوص وإنما يدخل في الظاهر المحتمل له) (بدائع الفوائد: (15/1)).

ثالثاً: إذا سلمنا بجواز الإسناد المجازي في باب الإخبار فأين الدليل على جواز استعمال المجاز العقلي في باب الدعاء والطلب؟ وهما أمران مختلفان في الحقيقة وفي كثير من الأحكام، فلو قلنا أنه يجوز للناس أن ينسبوا الفعل إلى من لا يصح أن يقوم به على جهة الخبر، ولكن لا يجوز أن يطلبوا الفعل ممن لا يصح أن يقوم بها، فيجوز أن يقولوا: أنبت الربيع البلق على جهة الخبر، ولكن لا يجوز لهم أن يقول: يا ربيع ندعوك ونرجوك أنبيت لنا البقل.

فليس كل ما جاز إخباراً، جاز طلباً، والدليل على هذا الفرق الواضح أنه صح أن يقال أنبت الربيع البقل والماء العشب ولم يصح أن يقال: يا ربيع أنبت البقل، ويا ماء أنبت العشب.

ولهذا أقرّ الطوفي أنّه: " .. لا يقال: يا محمد اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو أحيني، أو أعطني مالًا وولدًا؛ لأن ذلك شرك بإجماع" الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية.

ثمّ إنه إذا كان الأنبياء واتباعهم ممن أجرى الله على أيديهم الآيات والكرامات لم يرتضوا أن ينسب إليهم الشفاء ونحوه مما يختص به الله أو يتوجه إليهم بالسؤال المباشر، فكيف بمن دونهم ممن جاء بعدهم ولم يكرم بمثل هذه الكرامات؟!

فهذا الغلام المؤمن الذي أكرمه الله لم يكن يقرّ من أتاه بقوله: اشفني، بل كان يردّ عليهم مصحِّحًا أصل الخطاب، فيقول: إنما يشفي الله؛ وكذلك الأنبياء والرسل لم ينسبوا الآيات ولا الأفعال الخارقة إلى أنفسهم، وقالوا: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، فنزَّهوا أنفسهم عن دعوى ما هو من خصائص الربوبية، بل إن الله سبحانه لما أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها، قطع كل توهُّم، فقال عقب ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾.

رابعاً: لو كان هذا المجاز سائغًا في اللغة شائعًا في الاستعمال لما جاز استخدامه ولا إطلاقه في حكم الشرع وخصوصاً في باب التوحيد والشرك، فلا يجوز صرف ألفاظ الدعاء عن ظواهرها إلى معانٍ مؤوَّلة في مقامٍ يُطلب فيه الإخلاص لله تعالى وحده، وهناك من الألفاظ ما يكون شركًا وكفرًا بذاته، وهو ما يعرف بأفعال الردة وأقوالها؛ كسب الله، والاستهزاء بالدين، وسب النبي صلى الله عليه وسلم، أو التنقيص منه، قال الله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة: 65، 66].

والآيات في النهي عن دعاء غير الله تعالى والاستغاثة بالأموات فيما لا يقدر عليه إلا الله قاطعة بالنهي عن ذلك ووصفه بالشرك، قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: 5، 6]، والآيات في ذلك كثيرة مشهورة.

فليس كل ما جاز لغة جاز شرعاً، فإنّ المشركين لما توجهو بالدعاء إلى الملائكة والأنبياء والأولياء في طلب حوائجهم، أوضح الله سبحانه وتعالى في القرآن أن ما يعبدونهم عاجزين غير قادرين ولا يستجيبون لهم بشيء ولا يملكون شيئاً ولا يعقلون وذم فعلهم مطلقاً ولم يستثنى ما كان على سبيل التسبب أوالكرامة أو التفويض من الله، فهو عندما وصفهم بالعجز وعدم القدرة والاستجابة .. دل ذلك قطعاً أنه لا يرضى بذلك ولم يشرعه ولم يقدرهم على فعل ذلك على كل حال سواء كان على جهة الكرامة أو جهة التفويض أو الواسطة والاستشفاع.

خامساً: لو سلمنا بأن مقصد المستغيث بالأموات كون الميت سببًا في حصول الضر والنفع وأنه متشفع به إلى الله لما غير من حكم المسألة شيء؛ فإنَّ هذا هو حقيقة شرك العرب في الجاهلية، كما قال الله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: 18]، وقال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]، قال الفخر الرازي في تفسيره لآية سورة يونس السابقة: "إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظَّموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله" تفسير الرازي (59/17).

ويشرح التفتازاني مثار الشرك عند عباد الأصنام بقوله: "إنه لما مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله تعالى اتخذوا تمثالًا على صورته، وعظموه تشفعًا إلى الله وتوسلًا" شرح المقاصد (4/ 41).

فالمشركون الذين نزل فيهم القرآن الكريم وحكم بكفرهم كانوا يعتقدون السببية والتوسط، وهذا هو حجة من يرى المجاز العقلي ويبيح إسناد الدعاء لغير الله تعالى.

فلو أن اعتقاد السببية والتوسط ينفع في حمل كلام من يدعو غير الله تعالى على المجاز العقلي، ويمنع من الحكم عليه بالشرك، لكان الشارع أعذر المشركين الذين يعتقدون التسبب والوساطة، ولحكم بكفر من يعتقد الاستقلال فقط، وأما من اعتقد أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى وأنها شفعاء عند الله فاستثناهم ولم يحكم بكفرهم، ولكن رأينا أن الله تعالى حكم على الكل بالكفر والشرك في كتابه العزيز، فلا ينفع ادعاء المجاز العقلي ولا الجدال عنهم بمثل هذه التأويلات البعيدة والحيل الفاسدة، قال تعالى: ((هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)) [النساء:109].

وقد ثبت بما لا مجالاً للشك أن المشركين الأوائل كانوا يقرون بالربوبية والتأثير المطلق لله تعالى، وإنما يعتقدون الشفاعة والوساطة والتسبب فكما لم ينفعهم ذلك الاعتقاد ولم يعذرهم الله تعالى، فكذلك من دعا غير الله تعالى من الأموات والغائبين وادعى الوساطة والشفاعة والتسبب لا ينفعه ذلك.

فمن اعتقد جواز الاستغاثة وطلب الحوائج من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من باب المجاز العقلي والتسبب وأن ذلك جائز في اللغة فقدر برر للمشركين فعلهم لكونهم يفعلون ذلك تسبباً وتشفعاً من غير اعتقاد في أوليائهم الربوبية أو شيء من خصائصها وأن لغتهم العربية تجيز لهم ذلك.

سادسًا: إنّ المخالف لا يخرج في هذه المسألة عن أحد قولين لا ثالث لهما:

إمّا أن يقول: كلُّ ما لا يُطلب إلا من الله يجوز طلبه من المخلوق إذا أُوِّل بالمجاز، وإمّا أن يقول: لا يجوز ذلك أصلًا.

فإن قال بالأول، قيل له إلزامًا لا مفرّ منه: إذًا يجوز للمسلم – بزعمه – أن يقول: إنّ الرسول خالقُ السماوات والأرض، وربُّ كل شيء ومليكه، ويكون التقدير: (إنّ ربَّ الرسول)، وهذا مجازٌ بحذف المضاف، وهو أسلوب معروف في لسان العرب.

وحينئذٍ لا يبقى فرقٌ بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره من الأنبياء أو الصالحين، بل يجوز – على هذا الأصل الفاسد – أن يقال: البدوي ربُّ الكون، ومحيي الموتى، وخالق الخلق، بدعوى أنّ المراد: (ربّ البدوي)!

وبهذا يُفتح بابٌ لا يُغلق من التحريف، وتُشرَع الأبواب للتأويلات الباطنية التي لا تعجز عن إيجاد مخارج لغوية لكل كفرٍ وزندقة؛ كما فعلت القرمطية والباطنية حين قالوا: الصوم هو الإمساك عن سرّ الطائفة، والزنا هو إفشاء سرّها، والحج هو زيارة شيوخهم... وكل ذلك بزعم المجاز واللغة!

وحين يُسلَّم بهذا الأصل، ينتقض الدين كلّه، وتسقط دلالة الألفاظ، وتبطل حقيقة التوحيد، ولا يبقى حدٌّ فاصل بين الإيمان والكفر، ولا بين العبادة والشرك.

وأمّا إن قال بالثاني – وهو الحق – فقد بطل قوله في دعوى المجاز من أصلها، وثبت أنّ ما اختصّ به الله لا يجوز صرفه لفظًا ولا معنىً ولا دعاءً ولا طلبًا لغيره، لا حقيقة ولا مجازًا.

قال الحافظ ابن عبد البر: "ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات" التمهيد لابن عبد البر: (131/7).

وقال شمس الدين الجزري: "ولو فتح باب تأويل كل كلام ظاهره الكفر لم يكن في الأرض كافر" تنبيه الغبي: (196)

وقال الحافظ الذهبي: "وإن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات وسلكنا طريق التأويلات المستحيلات، لم يبق في العالم كفر ولا ضلال وبطلت كتب الملل والنحل واختلاف الفرق" تاريخ الإسلام للذهبي وعنه في العقد الثمين: (332/5).

ولكون التأويل يؤدي إلى هذه المفاسد لم يترك الشارع الحكيم الأمور سدى بل أناط الحكم بظواهر الألفاظ وما تقتضيه بأساليبها التركيبية، وأما ما وراء الألفاظ من السرائر والضمائر فإلى الله تعالى، قال عمر رضي الله عنه: "إن أناساً كانوا يأخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة" (البخاري مع الفتح: (251/5) (رقم:2641)).

والمدار في الحكم بالكفر على الظواهر، ولا نظر للمقصود والنيات ولا نظر لقرائن الحال.

انظر رسالة الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية للشيخ جيلان بن خضر العروسي.

سابعاً: إن من خصائص الإله الحق أنه من تفزع إليه الخلائق وتستغيث به في النوائب لطلب حوائجها، وهذا يدل على وجوب إفراد الله بالاستغاثة والدعاء فيما اختصت به القدرة الإلهيّة، وأن هذا الباب لا يدخله المجاز العقلي الاسنادي، يقول أبو الهيثم: (الله: أصله إله ... وأصل إله ولاه. فقلبت الواو همزة... ومعنى ولاه أن الخلق إليه يؤلهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما ينوبهم كما يوله طفل إلى أمه). لسان العرب " (468/13).

وقال ابن منظور: "دعا ...فادع المسلمين ومعناه استغث بالمسلمين فالدعاء ههنا بمعنى الاستغاثة وقد يكون الدعاء عبادة "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ " يقول: ادعوهم في النوازل التي تنزل بكم إن كانوا آلهة كما تقولون يجيبوا دعاءكم فإن دعوتموهم فلم يجيبوا فأنتم كاذبون أنهم آلهة" لسان العرب (359/4)

ويقول الإمام ابن القيم: (اسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب) مدارج السالكين" (31/1).

وقد عدّ الشهرستاني الشافعي رحمه الله طلب الحوائج من الأصنام إثبات لإلهيتها، حيث قال ".. القوم لما عكفوا على التوجه إليها ـ الأصنام ـ كان عكوفهم ذلك عباده وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها" الملل والنحل (259/2)

ويدل على ذلك قوله تعالى "أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله .." النمل (62)

وقال الإمام الطبري رحمه الله: وقوله ((وإلى ربك فارغب)) يقول تعالى ذكره: وإلى ربك يا محمد فاجعل رغبتك دون من سواه من خلقه إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. اهـ.

استدلالهم بحديث ربيعة «أسألك مرافقتك في الجنة»

ومما احتجّ به القُبورية على جواز الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وحمل ذلك على المجاز العقلي، ما ورد في حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك مرافقتك في الجنة». فزعموا أنّ سؤال ربيعة – رضي الله عنه – يدل على جواز طلب ما لا يقدر عليه إلا الله من النبي صلى الله عليه وسلم، كدخول الجنة ونحو ذلك.

وهذا استدلال باطل من وجوه متعددة:

أولًا: لقد أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الأدلّة تنقسم إلى محكم ومتشابه؛ فالمحكم هو ما اتّضح معناه ولا التباس فيها على أحد من الناس، وأصبح مرجعًا وأصلاً يُرجَع إليه. أمّا المتشابه فهو ما احتمل وجوهًا من المعاني، واشتبهت في الدلالة على كثير من الناس، فيحتاج في فهمه إلى ردّه إلى المحكم، حتى ينكشف المراد منه، ولا يجوز أن يُعارَض المحكم بالمتشابه أو يُقدَّم عليه.

قال الله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" سورة آل عمران الآية 7

قال ابن كثير في تفسيره: "خبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس"

فنصوص الشرع المحكمة الكثيرة تدلّ على وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، وعلى النهي المطلق عن دعاء غيره، وهي دلالات تمنع حمل هذا الباب على المجاز أو التأويل.

ودلّت الأدلة على أنّ مجرد توجيه هذا الدعاء إلى غير الله شرك، وإن لم يعتقد الداعي في المدعوّ ربوبيةً ولا استقلالًا، قال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ}، فجعل الوصف بالشرك متعلقًا بـ مجرد الفعل دون اشتراط اعتقاد، وهذا يبطل من أصله دعوى المجاز العقلي في هذا الباب.

ووصف اللهُ تعالى دعاء غيره بأنه ظلم، وأمر بإخلاص الدعاء له وحده فقال: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، وأخبر أن الكفار كانوا يخلصون لله في الشدة ويشركون في الرخاء، فذمهم على ذلك، فقال سبحانه: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}. فدلّ هذا على وجوب إفراد الله بالدعاء في الرخاء والشدة جميعًا، وأن مجرد صرف الدعاء إلى غيره شرك.

وقد سمّى الله تعالى الدعاء عبادة، فقال: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي}، ثم قال في الآية نفسها: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}، فجعل الدعاء عبادةً، وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: «الدعاء هو العبادة».

وتأمل قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}، فقد نفى أن يكون أحد أضلّ ممن يدعو من لا يسمع ولا يستجيب، ووصف المدعوّين بأنهم غافلون عن دعاء من دعاهم، ثم قال: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}، فدلّ ذلك على أن هؤلاء المدعوّين كانوا صالحين، ودعاءهم من دون الله عبادة لهم وشرك بالله تعالى.

فالأدلة الشرعية كلها متضافرة على أنّ باب الدعاء لا يحتمل المجاز، ومن ظنّ أن المجاز يغيّر حكم العبادة فقد ناقض صريح القرآن والسنة والإجماع.

ثانياً: من القواعد المستقرّة عند أهل العربية أنّه لا يُصار إلى المجاز إلا إذا تعذّر حمل الكلام على حقيقته، أو استحال حمله على ظاهره، أمّا إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة، وكان المعنى مستقيمًا في السياق، فلا يصح العدول عنه إلى المجاز.

وعلى هذا فحديث أُبَيّ بن كعب الأسلمي رضي الله عنه حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك مرافقتك في الجنة» هو على حقيقته وظاهره، ولا حاجة فيه إلى دعوى المجاز؛ لأنّ الروايات الأخرى قد دلّت على المراد، كالرواية التي عند الإمام أحمد: «أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار»، وبضمّ رواية الإمام أحمد إلى رواية مسلم يتّضح أن مراد ربيعة رضي الله عنه: «أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار، وأن تشفع لي لمرافقتك في الجنة».

فهذه الرواية تبيّن أنّ سؤال المرافقة في الجنة إنما هو بطلب الشفاعة، وهي قرينة صريحة تُظهر مقصود السائل.

فإذا دلّ السياق والقرائن على المعنى المراد، لم يكن ثَمّ مجاز، لأن اللفظ يجري على حقيقته، ويُفهم على وجهه الصحيح، وفق القاعدة: الكلام يُفهم بسياقه، وبلحاقه، وبدلالة الحال.

وبهذا يتبين أن ربيعة رضي الله عنه لم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخله الجنة بنفسه، بل سأله أن يدعو له أو يشفع له عند ربه أن يبلّغه تلك المنزلة، وهذا النوع من السؤال داخل في باب التوسل المشروع وطلب الدعاء من الحيّ الحاضر، وهو الذي أجازه العلماء، إذ كان الصحابة يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الدعاء، كما في حديث الأعرابي الذي قال له: «استسقِ لنا يا رسول الله»، وكما في قصة المرأة السوداء التي طلبت منه أن يدعو الله لها.

ثالثاً: إنّ حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ليس فيه أدنى حجة لمن يستدل به على إثبات المجاز العقلي في باب الدعاء، ولا على جواز سؤال غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ذلك أنّ لفظ: «سَلْنِي» في لسان العرب يأتي على معانٍ متعددة، منها: طلبُ المعرفة بالشيء، وطلبُ الدعاء، وطلبُ البيان والدلالة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لربيعة: «سَلْنِي يا ربيعة أُعْطِكَ»، أي: أخبرني بحاجتك، وبيّن لي مطلوبك حتى أقوم بما أقدر عليه؛ ولأجل هذا قال ربيعة رضي الله عنه: «أنظر في أمري يا رسول الله ثم أُعلِمُك»، أي أتأمل حاجتي ثم أصرّح بها، ثم صرّح بمطلوبه فقال: «أسألك مرافقتك في الجنة»، أي هذه هي أمنيتي وغاية رغبتي، فسؤال ربيعة إنما هو سؤال إخبار بحاجته، مقرونٌ بطلب الدعاء والشفاعة، لا أنّه يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أمرًا من خصائص الرب جلّ وعلا؛ فإن دخول الجنة ورفع الدرجات لا يملكها إلا الله، ويؤيّد هذا المعنى ما ورد في مسند الإمام أحمد أنه قال: «أسأل رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لآخرتي، فإنه من الله عز وجل بالمنزلة التي هو بها».

ولمّا علم النبي صلى الله عليه وسلم أنّ مطلوب ربيعة أمرٌ أخروي، سأله مستثبتًا: «أو غير ذلك؟»، أي هل لك حاجة دنيوية أقدر على قضائها، فقال ربيعة: «هو ذاك»، أي لا أريد غير هذا المطلب الأخروي.

ثم أرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى السبب الشرعي الموصل إلى تلك المنزلة، فقال: «فأعنّي على نفسك بكثرة السجود»، أي أعن نفسك على تحصيل هذا المقام بالإكثار من الصلاة؛ فإن كثرة السجود من أعظم ما ترفع به الدرجات.

فدلّ قول النبي صلى الله عليه وسلم لربيعة: «فأعنّي على نفسك بكثرة السجود»، على أن هذه المرتبة العالية لا تُنال بمجرد السجود، بل بكثرة السجود مع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك

قال الملا علي القاري رحمه الله: «وفيه إشارة إلى أن هذه المرتبة العالية لا تُنال بمجرد السجود، بل بالسجود مع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك».

ويجلّي هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد بلفظ آخر: «أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار».

فهذا نصٌّ بيّن في أن مقصود ربيعة إخبارٌ بحاجته، مقرونٌ بطلب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له وشفاعته عند ربه، لا طلبُ شيءٍ لا يقدر عليه إلا الله، وهذا نظير حديث الأعمى الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله له بردّ بصره، فأمره أن يدعو هو ربَّه مع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له؛ فكان التوسل بدعائه صلى الله عليه وسلم، لا بذاته الشريفة، ولا بذاته بعد وفاته.

وبضمّ رواية الإمام أحمد إلى رواية مسلم يتّضح أن مراد ربيعة رضي الله عنه: «أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار، وأن تشفع لي لمرافقتك في الجنة».

وعليه: فليس في الحديث أي مستمسك لمن يستدل به على المجاز العقلي في إسناد المطالب الأخروية للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا على جواز سؤال النبي أو غيره ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا على مشروعية التوسل بالدعاء بعد وفاته. بل الحديث حجةٌ عليهم؛ إذ بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الطريق إلى تحصيل هذه المنزلة هو العمل الصالح مع الدعاء، لا سؤال البشر ما اختص به الرب تعالى، فإنّ مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة لا يملكها النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً؛ فهي بيد الله وحده. لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم مستثبتًا: «أو غير ذلك؟» ولما أصرّ ربيعة على مطلبه، دلّه النبي صلى الله عليه وسلم على السبب الشرعي الذي ينال به العبد تلك المنزلة: «فأعنّي على نفسك بكثرة السجود»

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يملك أن يُدخل أحدًا الجنة أو يصرف له المقامات الأخروية، لأعطاه ذلك مباشرةً ولا أرشده إلى العمل، فإرشاده للعمل دليلٌ قاطع أن ما طُلب ليس من مقدورات النبي صلى الله عليه وسلم.

وبذلك يتبيّن أن سؤال ربيعة إنما هو سؤال إخبار بحاجته، مقرونٌ بطلب الدعاء والشفاعة، لا طلبٌ لشيء من خصائص الله عز وجل. وبه يجتمع الحديثان، وتنتظم الأدلة، ويزول الإشكال.

رابعاً: إنَّ توجّه المشركين الأولين بالدعاء والاستغاثة إلى أوثانهم - وهي رموزٌ لصالحيهم وأوليائهم - كان بحجّة أنها تشفع لهم وتقرّبهم إلى الله وترفع حوائجهم إليه. وهذا هو عين ما يفعله القبوريّة اليوم وما يقولون به هنا؛ إذ يتوجّهون بالدعاء والاستغاثة إلى الأولياء في أمور لا يقدر عليها إلا الله، ويزعمون أن الأولياء يشفعون لهم أو يرفعون حوائجهم إلى الله.

وليس الفرق بين الفريقين في الفعل، فالفعل واحد: صرف الدعاء والاستغاثة لغير الله.

ولا في اعتقاد الربوبية، فكلاهما يقرّ بأن الله وحده هو الرب المتصرف.

وإنما الفرق أن المشركين الأولين اعترفوا بأن توجّههم بالدعاء والاستغاثة عبادةٌ لأصنامهم، لكنهم لا يرون ذلك مضرًّا بدينهم ما دام مقصدهم القربة والشفاعة.

أما القبوريّة اليوم فلا يعدّون الدعاء والاستغاثة عبادة إلا إذا اعتقدوا في الأولياء ربوبية، ويزعمون أن ما يفعلونه من باب "التوسّل" ولا يقدح في الديانة، مع أن حقيقة الفعل واحدة، فكلاهما يطلبان من الأولياء الحوائج ويزعمان أن الأولياء يشفعون لهم عند الله، وكلاهما يقرّ بالربوبية لله، ومعلوم أنّ العبرة بالحقائق والمعاني، لا بالألفاظ والمباني.

فالمشركون الذين نزل فيهم القرآن وحكم الله بكفرهم لم يكونوا يعتقدون في آلهتهم الربوبيّة ولا الخلق ولا التدبير، وإنما كانوا يعتقدون السببيّة والوساطة والشفاعة، وهذا بعينه هو الأصل الذي يتذرّع به اليوم من يجيز دعاء غير الله بحجّة المجاز العقلي.

وقد ثبت بنصوص القرآن وأقوال السلف، أن مشركي الجاهلية كانوا يقرّون بأن التأثير المطلق والخلق والتدبير لله وحده، ولم ينازعوه في ربوبيّته، وإنما زعموا أن أولياءهم وصالحيهم وملائكتهم أسبابٌ ووسائط وشفعاء يقرّبونهم إلى الله ويقضون حوائجهم بإذنه.

ومع هذا الإقرار الصريح، لم يعذرهم الله تعالى، ولم يقبل منهم دعوى الوساطة، ولا اعتقاد السببية، ولا زعم الشفاعة، بل سمّى فعلهم شركًا، وحكم بكفرهم، وأمر نبيَّه ﷺ بقتالهم.

فإذا كان هذا الاعتقاد لم ينفع المشركين الأوّلين، فكيف يُظنّ أنه ينفع من دعا اليوم الأموات والغائبين، واستغاث بهم، وطلب منهم قضاء الحاجات، ثم اعتذر بأن ذلك من باب المجاز العقلي، أو التسبب؟

وإفراد الله بالدعاء مطلوب شرعي ودعاء غير الله مذهب أهل الشرك، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله: (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) "أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم ".

فقد كان أهل الجاهلية يستغيثون بأوليائهم ولا يخلصون لله في الدعاء والطلب منه وحده، ويزعمون أنّ هؤلاء الأولياء وسائط بينهم وبين الله وأنّ ذلك لايضر الديانة، قال الطبري عن مشركي العرب: "إشراكهم هو جعلهم لله شريكا في عبادته ودعائه، فلا يخلصون له في الطلب منه وحده" تفسير الطبري

قال الرازي الشافعي في تفسيره (59/17): "اختلفوا في أنهم قالوا في الأصنام أنهم شفعاؤنا عند الله....." فذكر صور منها قوله: "ورابعها أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صورة أنبيائهم وأكابرهم وزعموا متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقادهم أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون لهم شفعاء عند الله".

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي عند قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرضِ} إلى قوله: {فسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس: 31]: "إن قلتَ: هذا يدل على أنّهم معترفون بأنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ، فكيفَ عبدوا الأصنام؟! قلت: كلُّهُم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنامَ عبادةَ اللَّهِ تعالى والتقرُّبَ إليه، لكنْ بطرقٍ مختلفةٍ. ففرقةٌ قالت: ليستْ لنا أهليَّةٌ لعبادةِ اللَّهِ تعالى بلا واسطة لعظمتِهِ، فعبدْنَاها لتقرّبنا إليه تعالى، كما قال حكايةً عنهم: {مَا نَعْبُدُهمْ إلاّ ليُقَرّبونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]. وفرقةٌ قالت: الملائكة ذَوُو جاهٍ ومنزلةٍ عند الله، فاتَّخذنا أصنامًا على هيئة الملائكة ليقرِّبونا إلى اللَّهِ" فتح الرحمن بشرح ما يلتبس من القرآن (ص: 28).

وقد ذكر التفتازاني أن شرك المشركين وقع حين "مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله اتخذوا تمثالاً على صورته وعظموه تشفعاً إلى الله تعالى وتوسلاً" شرح المقاصد (4/ 41).

خامساً: إنّ الشريعة الإسلامية جاءت بسدّ الذرائع في الألفاظ الموهِمة التي قد تُفضي إلى معنى باطل أو اعتقاد فاسد، ولو لم يقصد قائلها ذلك، ومن شواهد هذا الأصل:
قوله تعالى:﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾
فنهى الله تعالى عن لفظ «راعِنا» مع أنه يحتمل معنى صحيحًا، لكنه يوهِم معنى فاسدًا كانت اليهود تقصده، فسدّت الشريعة الباب بترك اللفظ الموهِم.
قال الجصاص في "أحكام القرآن" (58/1): (وقوله "رَاعِنَا" وان كان يحتمل المراعاة والانتظار، فإنه لما احتمل الهزء على النحو الذي كانت اليهود تطلقه نهوا عن إطلاقه، لما فيه من احتمال المعنى المحظور إطلاقه، ومثله موجود في اللغة) ثم قال: (وهذا يدل على أن كل لفظ احتمل الخير والشر فغير جائز إطلاقه حتى يقيد بما يفيد الخير) انتهى
فتأمل كيف أن الصحابة استعملوا هذا اللفظ وهم أبعد الناس عن إرادة معنى الهزء والتنقص، فنهاهم الله تعالى عن ذلك اللفظ لما فيه من الاشتراك، ولم يكف في تجويز استعماله ما قام بقلوبهم ونياتهم من المعنى الخير الصحيح. وهذا جلي لمن تجرد!
قال الحافظ ابن عبد البر: (ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات) (التمهيد لابن عبد البر: (131/7)).
وقال شمس الدين الجزري: (ولو فتح باب تأويل كل كلام ظاهره الكفر لم يكن في الأرض كافر) (تنبيه الغبي: (196))
وقال الحافظ الذهبي: (وإن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات وسلكنا طريق التأويلات المستحيلات، لم يبق في العالم كفر ولا ضلال وبطلت كتب الملل والنحل واختلاف الفرق) (تاريخ الإسلام للذهبي وعنه في العقد الثمين: (332/5)).
وهذا يدل على بطلان القول بجواز المجاز العقلي في باب الدعاء والذي هو أعظم مقامات العبادة.
والشارع لم يجعل مجرد كون القائل مسلمًا سببًا دائمًا لصرف الكلام إلى المجاز أو التأويل، بل جرى الحكم في نصوص كثيرة على الظاهر مع وجود احتمال قصد غيره، كما في حديث الآخر: "اللهم اغفر لي إن شئت"، حيث أنكر النبي صلى الله عليه وسلم مجرد تعليق الدعاء على المشيئة، وهو أمر ليس مقصودًا للشرك، لكنه لَم يلتفت إلى المقصد، بل حكم على ظاهر اللفظ.
فكيف يعامل ظاهر قول الصحابي – وهو من خيار الأمة – بالحكم، ولا يُعامل ظاهر قول من يدعو غير الله أو يقول "أغثني يا رسول الله" أو "أعطني أولادي يا بدوي" بالحكم الشرعي نفسه؟
وهؤلاء الذين أدخلوا باب المجاز العقلي في مسألة الاستغاثة ودعاء غير الله لم يلتزموه في مواضع أخرى هي مناقضة للإسلام في الظاهر أشد وأغلظ من مسألة الاستغاثة.

فهم لم يلتزموا هذا الأصل في باب السبِّ والطعن في الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل جزم بكفر سابّ الله ورسوله كفرًا أكبر، وإن صدر السبّ من مسلم، ولم يجعل إسلام القائل قرينةً كافيةً لصرف كلامه إلى معنى مجازي أو محمول على غير ظاهره، كما صنع في باب الاستغاثة.

سادساً: إنّ الفقهاء المتأخرين الذين جوّزوا طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته كالطوفي والعراقي، ينكرون ويمنعون الاستغاثة بالمخلوق فيما يختص فعله بالله عز وجل؛ كالرحمة والمغفرة والرزق والحياة ونحو ذلك، وهذا يدل على أنّ المجاز العقلي لا مدخل له في باب التوحيد والشرك، وأنّ الألفاظ تُحمَل على حقائقها الشرعية في هذا الباب العظيم، فلو كان قول القائل: «يا محمد اغفر لي» يدخله المجاز، ويُحمل على معنى «يا محمد ادعُ الله لي بالمغفرة» كما يقول القبوريون، لما أقرّ الطوفي أنّه شرك بإجماع.

قال الطوفي: "معلوم عند صغير المسلمين -فضلًا عن كبيرهم-أن المخلوق على الإطلاق لا يُطلَب منه، ولا ينسب إليه فعل ما اختصت القدرة الإلهية به، وقد رأينا أغمار الناس وعامتهم وأبعدهم عن العلم والمعرفة يلوذون بحجرة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يزيدون على أن يسألوا الشفاعة والوسيلة: يا رسول الله اشفع لنا، يا الله ببركة نبيك اغفر لنا، فصار الكلام في المسألة المفروضة فضلًا لا حاجة بأحد من المسلمين إليه..

وإذا لم يكن بدٌّ من التعريف بهذا الحُكْم خشية أن يقع فيه أحد، فليكن بعبارة لا توهم نقصًا في النبي صلى الله عليه وسلم، ولا غضًّا من منصبه، مثل أن يقال: ما استأثر الله عز وجل بالقدرة عليه فلا يطلب من مخلوق" الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية (ص: 481).

وقد سئل القاضي الفقيه أبو يعلى ابن الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ) عن مسائل وردت عليه من مكة وكان منها: ما تقول في قول الإنسان إذا عثر: (محمد أو عليّ)؟ فأجاب: "إن قصد الاستعانة فهو مخطئ؛ لأن الغوث من الله تعالى فقال: وهما ميتان فلا يصح الغوث منهما، ولأنه يجب تقديم الله على غيره" نقله عنه ابن القيم في بدائع الفوائد (٤/ ٤٠).

وكذلك تلميذه الأصوليّ ابن عقيل، يقول فيما أنكره من استغاثة العوام وأنها من موجبات الكفر: "وخطاب الموتى بالألواح وكتب الرقاع فيها: يا مولاي، افعل لي كذا وكذا، وأخذ التراب تبركًا وإفاضة الطّيب على القبور وشدّ الرحال إليها" ينظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: 345)، إغاثة اللهفان (1/ 195) لابن القيم.

وقد جاء في وصية الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله-، لابنه الشيخ عبد الوهاب ((وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، التوحيد، التوحيد، التوحيد)) [مجالس الفتح الرباني ص 373]

وقال الجيلاني: ((إذا كان هو الفاعل على الحقيقة فلم لا ترجعون إليه في جميع أموركم وتتركون حوائجكم وتلزمون التوحيد له في جميع أحوالكم؟ أمره ظاهر لا يخفى على كل عاقل ... الخ)) [الفتح الرباني ص 263]

وقال الجيلاني: ((يا من يشكو إلى الخلق مصائبه إيش ينفعك شكواك إلى الخلق لا ينفعونك ولا يضرونك، وإذا اعتمدت عليهم وأشركت في باب الحق يبعدونك وفي سخطه يوقعونك وعنه يحجبونك أنت يا جاهل تدعي العلم من جملة جهلك بشكواك إلى الخلق ... الخ)) [الفتح الرباني ص 117 – 118]

وقال الإمام ابن القيم: "ومن أنواعه ـ أي: الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم" مدارج السالكين (375/1).

وقال الحافظ ابن رجب في تحقيق كلمة الإخلاص ص 21: "فتحقيقه بقول لا إله إلا الله أن لا يأله القلب غير الله حبا ورجاء وخوفا وتوكلا واستعانة وخضوعا وإنابة وطلبا ..

ثم قال: "فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحا في إخلاصه في قول لا إله إلا الله ونقصا في توحيده وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك". رسالة تحقيق كلمة الإخلاص.

وقال الحافظ النووي رحمه الله: "...وقوله (صلى الله عليه وسلم):(إذا سالت فاسأل الله)إشارة إلى أن العبد لا ينبغي أن يعلق سره بغير الله بل يتوكل عليه في سائر أموره ، ثم إن كانت الحاجة التي يسألها لم تجر العادة بجريانها على أيدي خلقه كطلب الهداية والعلم والفهم في القرآن والسنة وشفاء المرض وحصول العافية من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، سأل ربه ذلك، وإن كانت الحاجة التي يسألها جرت العادة أن الله سبحانه وتعالى يجريها على أيدي خلقة، كالحاجات المتعلقة بأصحاب الحرف والصنائع وولاة الأمور، سأل الله تعالى أن يعطف عليه قلوبهم فيقول: اللهم أحنن علينا قلوب عبادك وإمائك وما أشبه ذلك .. وأما سؤال الخلق والاعتماد عليهم فمذموم." انظر شرح الأربعين النووية المنسوب للمؤلف، الحديث رقم (19).

ومن مجموع هذه النقول عن أئمة الإسلام يتبيَّن بطلان دعوى المجاز العقلي، وأنه لا مدخل له في هذا الباب العظيم؛ إذ لو كان دعاء غير الله، أو سؤاله، أو الاستغاثة به مما يُحتمل فيه المجاز أو التأويل، لما أطلق الأئمة الحكم بالشرك على من التمس من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، من غير تفصيل ولا استثناء.

عقيدة المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وأهمية معرفتها

ينبغي على المسلم أن يعلم أنَّ معرفة التوحيد على حقيقته لا يمكن أن تتحقّق دون معرفة الشرك وأسبابه؛ فالأشياء لا تُعرف إلا بأضدادها، ومن جهل الشرك استحال عليه أن يُحسن فهم التوحيد.

قال الله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

وقد قرّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعدةً جامعة فقال: «إنما تُنقَض عُرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»؛ إذ من جهل ما كان عليه أهل الشرك لم يُدرك خطره، ولا عرف كيف يتوقّاه.

وكذلك قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»، لأن من لم يعرف الشر وقع فيه من حيث لا يشعر.

وصدق القائل:

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ ولكن لتوقّيه ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيه

وعليه، فإن معرفة عقيدة المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ تعد من الأهمية بمكان؛ إذ بمعرفة ذلك تنجلـي حقيقة التوحيد، ويستطيع المسلم أن يُميّز تمييزًا قاطعًا بين دين الإسلام ودين المشركين، وبين عبادة الله وحده وعبادة غيره.

ولمّا غابت هذه الحقيقة عن القبوريّة وقعوا في الرزيّة؛ فصرفوا العبادة والدعاء إلى غير الله، وعلّقوا قلوبهم بالمخلوقين أحياءً وأمواتًا.

وسنبين عقيدة أهل الجاهلية بيانًا يرفع الالتباس إن شاء الله، فنذكرها أولًا على وجه الإجمال، ثم على وجه التفصيل؛ ليظهر حقيقتها ظهورًا لا يدع مجالًا للتأويل ولا للاشتباه.

وخلاصتها المجملة أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يُقِرّون لله بالربوبية: يقرّون بأنه الخالق، الرازق، المدبّر، ومع ذلك لم يُدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، ولم يعصم دماءهم ولا أموالهم؛ لأنهم لم يفردوه بالعبادة، بل أشركوا في الألوهية.

فلم يكن شركهم جحودًا لوجود الله، ولا إنكارًا لخلقه أو رزقه أو تدبيره، وإنما كان بصرف العبادة لغيره؛ إذ اتخذوا الأوثان والصالحين وسائط وشفعاء، فدعوهم من دون الله، وسألوهم قضاء الحاجات، وزعموا أنهم يقرّبونهم إلى الله ويشفعون لهم عنده.

وأهل الجاهلية مع شركهم هذا، إلاّ أنهم إذا نزلت بهم الشدائد، وانقطعت الأسباب، وعاينوا الهلاك، تركوا آلهتهم، ونبذوا شفعاءهم، وأخلصوا الدعاء لله وحده؛ فلا يستغيثون بغيره، ولا يسألون كشف الضر إلا منه، مما يدل دلالةً قاطعة على أن الله يحب من عباده أن يُفردوه بالدعاء والاستغاثة في الرخاء والشدة جميعًا، وأن الإخلاص في الشدة وحدها لا ينفع صاحبه إذا عاد إلى الشرك عند الرخاء.

وقد شهد القرآن الكريم بهذه الحقيقة في غير موضع، وثبتت في السنة النبوية، ونقلها السلف الصالح نقلًا متواترًا.

وإليك بيان عقيدة المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مفصّلة، مقرَّرة في أصولٍ جامعة لا لبس فيها:

أولًا: إقرارهم لله بالربوبية: لقد كان مشركو الجاهلية يُقِرّون بأن الله وحده هو الخالق الرازق المدبّر، ولم ينازعوا في شيءٍ من ذلك، ومع ذلك لم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، ولم يعصم دماءهم ولا أموالهم لكونهم عبدوا مع الله غيره.

وقد دلّ على ذلك القرآن في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[الزخرف: 87]، وقوله:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾[يونس: 31].

فدلّ ذلك دلالةً قاطعة على أن مجرد الإقرار بالربوبية لا يكفي في تحقيق الإسلام.

قال الإمام ابن كثير عند قوله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس و القمر ليقولن الله فأنى يؤفكون": "يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو لأن المشركين الذين يعبدون غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض و الشمس والقمر وتسخير الليل والنهار وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم .... فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المنفرد بتدبيرها فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته **وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما يقولوا في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك"**.

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي عند قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرضِ} إلى قوله: {فسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس: 31]: "إن قلتَ: هذا يدل على أنّهم معترفون بأنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ فكيفَ عبدوا الأصنام؟! قلت: كلُّهُم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنامَ عبادةَ اللَّهِ تعالى والتقرُّبَ إليه، لكنْ بطرقٍ مختلفةٍ. ففرقةٌ قالت: ليستْ لنا أهليَّةٌ لعبادةِ اللَّهِ تعالى بلا واسطة لعظمتِهِ، فعبدْنَاها لتقرِّبنا إليه تعالى .. " فتح الرحمن بشرح ما يلتبس من القرآن (ص: 28).

وقد نقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه (الإشارة والإيجاز إلى أنواع المجاز) تعليقاً على قوله تعالى:﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ما نصُّه: «وما سَوَّوهم به إلا في العبادة والمحبة دون أوصاف الكمال ونعوت الجلال" وممن نقل عنه: الجرجاني في شرح المواقف حيث يقول بعد أن ذكر عباد الأوثان: "فإنهم لا يقولون بوجود إلهين واجبي الوجود، ولا يصفون الأوثان بصفات الإلهية، وإن أطلقوا عليها اسم الآلهة، بل اتخذوها على أنها تماثيل الأنبياء أو الزهاد أو الملائكة"

وقال القرطبي عند قوله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها، وهم يعبدون الأوثان" تفسير القرطبي (9/ 272).

لذا قال الرازي: " أَجْمَعَ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كُفْرٌ سَوَاءٌ اعْتَقَدَ فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ كَوْنَهُ إِلَهًا لِلْعَالَمِ أَوِ اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّ عِبَادَتَهُ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى." مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (14/ 350)

ثانياً: أنّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا على عبادات شتى، فمنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء ومنهم من يعبد الصالحين ومنهم من يعبد الحجر والشجر .. ، وإنما عبدوا الأصنام على أنها تماثيل الملائكة والأنبياء والصالحين.

وقد صرّح بذلك كبار أئمة التفسير والفقه؛ كالفخر الرازي، والجرجاني، وزكريا الأنصاري، وغيرهم، حيث قرروا أن المشركين إنما عبدوا الأصنام على أنها صورٌ للأنبياء، أو الصالحين، أو الملائكة، يتقربون بعبادتها إلى الله، ويطلبون بها الشفاعة والزلفى، لذا قال تعالى:﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾.

قال الرازي في (20 / 102) في تفسير قوله تعالى: (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم أقرب): "اعلم ان المقصود من هذه الآية الرد على المشركين. وقد ذكرنا ان المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية ان نشتغل بعبادة الله تعالى، فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة، ثم انهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل ...."

وقال الرازي في تفسيره (283/26) عند قوله تعالى: " الله يتوفى الأنفس ... " الزمر: "واعلم ان الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد انها آلهة تضر وتنفع، وانما نعبدها لأجل انها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله مقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله، فأجاب الله تعالى بأن قال: "أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون"

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي عند قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرضِ} إلى قوله: وفرقةٌ قالت: الملائكة ذَوُو جاهٍ ومنزلةٍ عند الله، فاتَّخذنا أصنامًا على هيئة الملائكة ليقرِّبونا إلى اللَّهِ" فتح الرحمن بشرح ما يلتبس من القرآن (ص: 28).

وقال الجرجاني في شرح المواقف بعد أن ذكر عباد الأوثان: ".. بل اتخذوها على أنها تماثيل الأنبياء أو الزهاد أو الملائكة"

وقال الرازي الشافعي في تفسيره (59/17): "اختلفوا في أنهم قالوا في الأصنام أنهم شفعاؤنا عند الله....." فذكر صور منها قوله: "ورابعها أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صورة أنبيائهم وأكابرهم وزعموا متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور ألأكابر على اعتقادهم أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون لهم شفعاء عند الله".

وقد ذكر التفتازاني أن شرك المشركين وقع حين "مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله اتخذوا تمثالاً على صورته وعظموه تشفعاً إلى الله تعالى وتوسلاً" شرح المقاصد (4/ 41).

وقد كان أول شرك وقع في الأرض كان بسبب الغلو في الصالحين؛ حين مات قوم صالحون، فصُوّرت صورهم، ثم نُصبت التماثيل على قبورهم، ثم عُظّمت، ثم دُعيت، ثم عُبدت من دون الله، كما وقع في قوم نوح عليه السلام.

وهذا المعنى متواتر عن السلف، ومصرّح به ابن عباس، وابن كثير، والبغوي، وابن حجر، وغيرهم، قال الإمام ابن كثير "قال عبدالله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير كان أول ماعبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حاله وعبادته فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا" (232/2) آية(59) من سورة الأعراف

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني «وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح لهذه الأصنام، ثم تبعهم من بعدهم على ذلك». وذكر أنهم كانوا يتبركون بدعاء سواع وغيره من الصالحين ويتمسحون بصورته». (فتح الباري 8: 668 – 669).

وقال البغوي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) هذه أسماء آلهتهم. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك"

فعبادة الأصنام منشؤها الغلو في الصالحين وقد بنوها لتذكرهم بالصالحين من أنبياء وأولياء.

وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى "أفرءيتم اللات والعزى" ((..وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا اللات بتشديد التاء وفسروه بأنه رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السويق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه))(271/4) سورة النجم

وقال البغوي: في تفسيره: وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح: "اللات" بتشديد التاء، وقالوا: كان رجلا يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه "

وجاء في الدر المنثور للسيوطي: الآيات 19 -27 أخرج عبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان اللات رجلا يلت سويق الحاج ولفظ عبد بن حميد: يلت السويق يسقيه الحاج.

وقال ابن كثير رحمه الله: "وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام". البداية والنهاية -(ج 10 / ص 286)

ويقول القرطبي رحمه الله في كتابه الجامع، وتفسيره النافع، مبيناً بأن منشأ عبادة الأصنام وأن البداية كانت بتعظيم قبور الصالحين: "حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير [فذكرتا ذلك] لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله". أخرجه البخاري ومسلم. قال علماؤنا : ففعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم ، فمضت لهم بذلك أزمان ، ثم أنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم ، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها ، فحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك ، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال : "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" وقال : "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد" .

راجع تفسير القرطبي لآية 104 من سورة البقرة الجامع لأحكام القرآن -(ج 2 / ص 58)

وقال الشيخ أحمد الرومي الحنفي في كتابه "مجالس الأبرار ومسالك الأخيار (فلما كان منشأ عبادة الأصنام من جهة القبور؛ نهى صلى الله عليه وسلم أصحابه في أوائل الإسلام عن زيارة القبور سداً لذريعة الشرك، لكونهم حديثي عهد بكفر، ثم لما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها).

وقال ابن قدامة المقدسي " لأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات باتخاذ صُوَرهم ومسحها والصلاة عندها " (المغني لابن قدامة 2 / 193).

وقال الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي الحنفي " وأما اتخاذ المساجد فلما فيه من التشبه باليهود واتخاذهم مساجد على قبور أنبيائهم وكبرائهم، ولما فيه من تعظيم الميت وشبه بعبدة الأصنام" (الكوكب الدري على جامع الترمذي ص 153.).

ولهذا شدّد النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن اليهود والنصارى على ذلك، سدًا لذريعة الشرك، وحسمًا لمادته من أصلها.

قال القرطبي المالكي ما نصه " فاتخاذ المساجد على القبور ممنوع لا يجوز... قال علماؤنا-أي المالكية-يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد... " قال " وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً فذلك يُهدم ويُزال فإن فيه تشبها بمن كان يعظم القبور ويعبدها. وهو حرام " تفسير القرطبي المسمى جامع الأحكام 10 / 247 تفسير سورة الكهف آية (21).

وقال النووي في شرح حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " قالت "فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً "رواه مسلم (12/5)

" قال العلماء إنما نهى النبي (صلي الله عليه وسلم) عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به ، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين - والتابعون إلى الزيادة في مسجد الرسول- صلى الله عليه وسلم - حين كثر المصلون وامتدت الزيادة في مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ،إلى أن أدخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ومنها حجرة عائشة -رضي الله عنها - مدفن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وصاحبيه أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما - بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله ، لئلا يظهر فيصلي إليه العوام ، ويؤدى إلى المحذور ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ،وحرفوهما حتى التقيا ،حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر ،ولهذا قال في الحديث ((ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً والله اعلم بالصواب " شرح مسلم للنووي (24/5)

وقال ابن حجر المكي الهيتمي الشافعي: "ومن ثم قال أصحابنا : تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء و الأولياء ....ومثلها مثل: الصلاة عليه، والتبرك والإعظام، وكون هذا الفعل كبيرة ظاهرة من ظاهر الأحاديث المذكورة ، وكأنه قاس على ذلك كل تعظيم للغير كإيقاد السرج عليه تعظيماً له وتبركاً به والطواف به كذلك ،وهو أخذ غير بعيد سيما وقد صرّح في الحديث المذكور آنفاً بلعن من اتخذ على القبر سرجاً .وأما اتخاذها أوثاناً فجاء النهى عنه بقوله - صلى الله عليه وسلم - ((لا تتخذوا قبري وثناً يعبد بعدي)) أي لا تعظموه تعظيم غيركم لأوثانهم بالسجود له أو نحوه إلى أن قال فإن أعظم المحرّمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد أو بناءها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لعن فاعله ، **ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور إذ هي أضر من مسجد الضرار لأنها أسست على معصية الرسول- صلى الله عليه وسلم -** لأنه نهى عن ذلك وأمر -صلى الله عليه وسلم - بهدم القبور المشرفة وتجب إزالة كل قنديل أو السرج على القبر ولا يصح وقفه ونذره)) الزواجر عن اقتراف الكبائر (195/1)

وروى عبد الرزاق في مصنفه وابن أبي شيبة أن على بن الحسين رضي الله عنه رأى رجلاً يأتي فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: " ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدي -يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وسلموا علي فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم " قال السخاوي " وهو حديث حسن "

قال المناوي الشافعي في فيض القدير عند شرحه لهذا الحديث: "ويؤخذ منه أن اجتماع العامة في بعض أضرحة الأولياء في يوم أو شهر مخصوص من السنَّة، ويقولون: هذا يوم مولد الشيخ ، ويأكلون ويشربون وربّما يرقصون فيه ، منهيُ عنه شرعاً ، وعلى ولي الشرع ردعهم عن ذلك وإنكاره عليهم وإبطاله" . انتهى

ويناسب هذا المقام ما ذكره الإمامان النووي وابن حجر في شرحهما على الصحيحين في الكلام على قصة موت موسى عليه السلام، وسؤال ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة.

قال النووي -رحمه الله -: (قال بعض العلماء: وإنما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتتن به الناس) شرح مسلم (128/15).

وقال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-:(لكن حكى ابن بطال عن غيره أن الحكمة في أنه لم يطلب دخولها ليُعمِّي موضع قبره لئلا يعبده الجهال من أمته) الفتح(207/3).

وقال ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى-في شرح عمدة الأحكام في حديث عائشة وقوله ((بنوا على قبره مسجداً)) إشارة الى المنع من ذلك وقد صرح به الحديث الآخر: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد).

وهذه العلّة قد صرّح بها الإمام الشافعي تصريحًا لا يحتمل التأويل، قال رحمه الله تعالى: «وأكره أن يُعظَّم مخلوق حتى يُجعل قبره مسجدًا، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس» (المهذب للشيرازي 456/1).

ومن هذه النقول يتبين ما فهمه العلماء من أحاديث النهي عن اتخاذ المساجد على القبور؛ وهو خشية التعظيم المفضي إلى عبادتها كما حصل للأمم السابقة بغلوها في أنبيائها وصالحيها إلى أن عبدتهم من دون الله وتحولت القبورية إلى وثنية وشرك، أجار الله أمة محمد من ذلك.

ولهذا نُهي عن زيارة القبور في أوّل الإسلام؛ سدًّا لذريعة الشرك، وحسمًا لمادته، لكون الناس حديثي عهدٍ بالجاهلية، ولمّا كانت القبور آنذاك مظنّة الغلو والتعلّق بالموتى.

كما ثبت في حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها» رواه مسلم.

قال المناوي رحمه الله في فيض القدير شرح الجامع الصغير: قوله صلى الله عليه وسلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور» أي: لِحُدوث عهدكم بالكفر، وبقاء آثار الجاهلية في النفوس، «فزوروها» أي: بعد أن انمحت آثار الجاهلية، واستحكم الإسلام، وصار الناس أهل يقين وتقوى بشرط أن لا يقترن بالزيارة تمسّح بالقبر، ولا تقبيل له، ولا سجود عليه، ولا تعظيمٌ يُفضي إلى الغلو». (فيض القدير 55/5).

ثالثاً: إنّ شركهم كان في العبادة والطلب فلم يخلصوا لله فيهما:

فقد كان أهل الجاهلية يستغيثون بأوليائهم ولا يخلصون لله في الدعاء والطلب منه وحده، ويزعمون أنّ هؤلاء الأولياء وسائط بينهم وبين الله وأنّ ذلك لايضر الديانة، فهم لم يكونوا يعتقدون أن أصنامهم تخلق أو ترزق استقلالًا، بل كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، كما قال تعالى:﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3].

وهذا أسلوب يفيد الحصر والقصر، فيكون معنى الآية ما نعبدهم لكونهم يخلقون أو يرزقون أو ينفعون أو يضرون أو يملكون أو يدبرون، وإنما نعبدهم لأجل غاية وغرض واحد فقط وهو ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده سبحانه، ولو كانوا يعتقدون في أوليائهم شيء أعلى من الشفاعة كالاستقلال بالتأثير والتدبير لقالوه فهم يحبون أوليائهم ويريدون لهم العلو والرفعة، فلمّا لم يزيدوا على قولهم أنهم يشفعون لنا في حوائجنا ويقربونا إلى الله زلفى حتى يرحمنا لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله دل أن هذا هو غاية ما يعتقدون فيهم.

قال البغوي الشافعي في تفسير هذه الآية: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"، قال قتادة: وذلك أنهم إذا قيل لهم: من ربكم، ومن خلقكم، ومن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى" تفسير البغوي

وقال الرازي: "ثم بيَّن تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون: إنه الله سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام: إنها تقربنا إلى الله زلفى، وأنهم شفعاؤنا عند الله، وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر" مفاتيح الغيب (17/ 70).

وقال ابن عابدين الحنفي في حاشيته: "وأما الذين عبدوا الأصنام فلم يعتقدوا الألوهية فيها وإنما عبدوها تقربا إلى الله تعالى". حاشية الدر المختار على رد المحتار226/4

ويقول الشهرستاني: "لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها" الملل والنحل (3/ 104).

وقال الطبري عن مشركي العرب: "إشراكهم هو جعلهم لله شريكا في عبادته ودعائه، فلا يخلصون له في الطلب منه وحده" تفسير الطبري -(20 / 60)

وقد كان المشركون يظنون أن أولياءهم وصالحيهم وأصنامهم تشفع لهم عند الله بغير إذنه، فشبّهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا شأنه كشأن ملوك الدنيا الذين تُقضى الحوائج عندهم بالوساطات، فقال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾[يونس: 18].

قال الرازي الشافعي في تفسيره (59/17): "اختلفوا في أنهم قالوا في الأصنام أنهم شفعاؤنا عند الله....." فذكر صور منها قوله: "ورابعها أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صورة أنبيائهم وأكابرهم وزعموا متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور ألأكابر على اعتقادهم أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون لهم شفعاء عند الله".

وقال الرازي عند قوله تعالى في سورة البقرة: (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) "لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السماوات والأرض علم ضروري، فيستحيل إطباق الجمع العظيم عليه، فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك، والعلماء ذكروا فيه وجوها: ثم قال: ورابعها: أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله تعالى اتخذوا صنما على صورته يعبدونه، على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله تعالى على ما أخبر الله تعالى عنهم بهذه المقالة في قوله: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) [يونس: 18]." التفسير الكبير وهذه هي أصل الشبهة التي جرّت الأمم إلى الشرك قديمًا وحديثًا، قال الرازي: واعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان، وذلك لأن أقدم الأنبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح -عليه السلام -وهو إنما جاء بالرد عليهم على ما أخبر الله تعالى عن قومه في قوله: (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) [نوح: 23] فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح -عليه السلام -وهي باقية إلى الآن، بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة." المصدر السابق

وقال الإمام ابن كثير في تفسير آية سورة[الزمر: 3]: "أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صورة الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين له ، قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد "إلا ليقربونا إلى الله زلفى" إي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا جاحدين له كافرين يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، **وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثة وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد الله وحدة لا شريك له** وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عنده بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه "فلا تضربوا لله الأمثال" تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ".

رابعاً: إنّ مشركي العرب كانوا يُفردون الله بالدعاء والاستغاثة عند الشدائد، ويتركون ما كانوا يعبدونه من دون الله إذا نزل بهم الخطر، فلا يسألون كشف الكرب ولا رفع البلاء إلا من الله وحده.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: "﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾[الزمر: 8]: «أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، ثم إذا كشف عنه عاد إلى الإشراك، فجعل لله أندادًا»، ثم قال:﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾تهديد شديد ووعيد أكيد."

وقال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[العنكبوت: 65]: «أي أخلصوا لله التوحيد عند الشدّة، وأفردوه بالعبودية، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم»، ثم قال: «فلما نجاهم إلى البر عادوا إلى الشرك».

وقال ابن كثير مفسراً: «أخبر تعالى أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده، فهلا يكون هذا منهم دائمًا؟».

وقال القرطبي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى :(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (38).

"قل أفرأيتم أي قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا: أفرأيتم إن أرادني الله بضر بشدة وبلاء هل هن كاشفات ضره يعني هذه الأصنام أو أرادني برحمة نعمة ورخاء هل هن ممسكات رحمته قال مقاتل: فسألهم النبي -صلى الله عليه وسلم -فسكتوا.

وقال غيره: قالوا: لا تدفع شيئا قدره الله، ولكنها تشفع. فنزلت قل حسبي الله وترك الجواب لدلالة الكلام عليه، يعني فسيقولون: لا، أي: لا تكشف ولا تمسك ف " قل " أنت حسبي الله أي: عليه توكلت أي: اعتمدت وعليه يتوكل المتوكلون يعتمد المعتمدون".

وقال الطبري رحمه الله: "وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك، ودلالة ما ظهر من الكلام عليه. والمعنى فإنهم سيقولون لا. فقل: حسبي الله مما سواه من الأشياء كلها، إياه أعبد، وإليه أفزع في أموري دون كل شيء سواه، فإنه الكافي، وبيده الضر والنفع، لا إلى الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع".

فهذه النصوص تدل دلالةً قاطعة على أن الله يحب من عباده أن يُفردوه بالدعاء والاستغاثة في الرخاء والشدة جميعًا، وأن الإخلاص في الشدة وحدها لا ينفع صاحبه إذا عاد إلى الشرك عند الرخاء.

فإذا كان هذا الوعيد الشديد في حق من يُشرك بالله في الرخاء ويُخلِص له في الشدة، مع إقراره بربوبية الله، فكيف بعظيم الإثم وشناعة الجرم في حق من يُشرك بالله في الرخاء والشدة معًا؟ أو من يعتقد في وليٍّ أو مخلوقٍ قدرةً غيبية، أو يزعم له تصرّفًا في الكون، أو يعتقد أنه يُنزل نفعًا أو يدفع ضرًّا استقلالاً؟!

وفي ختام هذا البيان، يحسن أن يُنقَل تقرير هذه الحقائق العقدية عن أحد كبار مشايخ صوفية حضرموت، وهو الشيخ عبد الله بن علوي الحداد، ليكون قوله حجةً على من ينتسب إليه أو يتذرع باسمه.
فقد قرر الشيخ الحداد أن مشركي العرب لم يكونوا منكرين لوجود الله ولا لربوبيته، بل كانوا يقرّون بأنه الخالق الرازق المدبر، كما نصّ القرآن على ذلك في مواضع كثيرة، وبيّن أن شركهم لم يكن في إنكار الخالق، وإنما كان في جعل الوسائط والوسائل، حيث عبدوا الأصنام لا لاعتقاد استقلالها بالخلق والتدبير، بل زعموا أنها تُقرّبهم إلى الله، ثم قرر الشيخ الحداد حقيقةً قاطعةً لا تحتمل تأويلاً، وهي أن مشركي العرب كانوا يُفردون الله بالدعاء والاستغاثة عند الشدائد، فلا يطلبون كشف الكرب ولا رفع المصائب إلا منه وحده، وإنّما شركهم في الرخاء.
يقول شيخ صوفية حضرموت عبد الله بن علوي الحداد: "ولما كانت العرب قد أعطيت من التمييز، وأُيّدت من المعقول بما لم يؤيَّد به غيرُها من الأمم؛ لم يصدر عنها الإنكار لوجود الحق سبحانه وتعالى؛ بل أقرت بوجوده، وبكون الخالق لكل شيء والرازق له، كما حكى الله ذلك عنها في غير ما آية من كتابه، مثل قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: 87].. إلى غير ذلك من الآيات المصرِّحات بما ذكرناه عن مشركي العرب. ويبين ذلك ما حكى الله عنهم في قوله تعالى أنهم قالوا فيما أشركوا به من دون الله: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3] أي: أنهم جعلوها وسائل ووسائط، يقصدون بعبادتهم التقرّب إلى الله فأخطؤوا في ذلك، ولكنهم أقرُّوا بوجود الحق، وبكونه الخالق لهم ولكل شيء، وأنهم إنما عبدوا ما عبدوه من الأصنام لتكون وسائل لهم عنده، ومقرِّبات لهم إليه؛ وكانوا -أعني مشركي العرب- يرجعون إلى الله في الشدائد وكشف المهمات والمصائب، ولا يطلبون ذلك ولا يسألونه إلا منه، كما أخبر الله بذلك في كتابه عنهم في مثل قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} [الإسراء: 67]، وقوله تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: 53] أي: تتضرعونَ وَتستغيثون" من كتاب الدَّعوة التَّامَّة والتَّذكِرَة العامَّة صفحة [199- 202] دار الحاوي للطباعة
ثم قال الشيخ الصوفي الحداد: "وإذا كان هذا التشديد العظيم الهائل، والوعيد الفظيع الشنيع، في حق من يدعو مع الله إلهاً آخر، ويشرك به سواه في الألوهية، مع أنه يُقِرُّ ويعترف لله بالألوهية والربوبية؛ فيكف يكون الحال، وعظيم الوبال والنكال في حق من ينكر أنه ليس للعالم إله من المعطلِّة، أو يقول: إن له إلهاً غير الله تعالى وتقدس عن قوله وافترائه {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:179]." انتهى. المصدر السابق

تلاعبُ الجنِّ والشياطين بالمشركين في عبادة الأصنام

لقد دلّت النصوص الشرعية وأقوال الأئمة على أن من أسباب وقوع الشرك في بني آدم تلاعبُ الجن والشياطين بعقول المشركين، وتمثُّلهم لهم، ومخاطبتهم من خلال الأصنام والأوثان، وقضاء بعض الحوائج على وجه الاستدراج والإضلال؛ ليصرفوهم عن توحيد الله تعالى، ومن أوضح الشواهد على ذلك ما ثبت في بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد رضي الله عنه لهدم العُزّى، حيث ظهر له شيطانٌ في صورة امرأةٍ عريانة ناشرة شعرها، فلما قتلها قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تلك العُزّى»

قال الحافظ ابن كثير: "قال البيهقي: أنبا محمد بن أبي بكر الفقيه، أنبا محمد بن أبي جعفر، أنبا أحمد بن علي، ثنا أبو كريب، عن ابن فضيل، عن الوليد بن جميع، عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى، فأتاها وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها.

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئا» فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة وهم حجابها، أمعنوا هربا في الجبل وهم يقولون: يا عزى خبليه يا عزى عوريه وإلا فموتي برغم. قال: فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها ووجهها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: «تلك العزى»". البداية والنهاية/الجزء الرابع/بعث خالد بن الوليد لهدم العزى

وهذا المعنى قرره القرآن صراحة في قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: 40–41].

وقد بيّن الأئمة أن معنى عبادتهم للجن: طاعتهم للشياطين فيما زيّنوه لهم من عبادة الملائكة أو الأصنام؛ كما قال ابن كثير، وأبو حيان، وغيرهما، وذكروا أن الشياطين: دخلوا في أجواف الأصنام والأوثان، وخاطبوا المشركين منها، فظن العابدون أن الصنم أو الوثن هو المتصرف والمتكلم. قال أبوحيان في البحر المحيط: "(بل كانوا يعبدون الجن)، إذ الشياطين راضون تلك الأفعال. وقيل: صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت، فيعبدون بعبادتها.

وقال ابن عطية: لم تنف الملائكة عبادة البشر إياها، وإنما أقرت أنها لم يكن لها في ذلك مشاركة". انتهى.

وقال البغوي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) هذه أسماء آلهتهم. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، .."

وقد لخّص ابن القيم رحمه الله هذه الحقيقة تلخيصًا بديعًا في كتابه إغاثة اللهفان، فبيّن أن الشياطين تدخل في الأصنام وتخبر العابدين ببعض المغيّبات، وتقضي لهم بعض الحاجات؛ فيظن الجهّال أن ذلك من ذات الصنم، ويؤوّله المتفلسفة والزنادقة بما يسمّونه «الروحانيات» و«العقول المجردة»، وكلّ ذلك تلبيسٌ شيطاني، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في خاتمة كتابه اغاثة اللهفان : "ومن أسباب عبادتها أيضا -الأصنام- أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات عنهم وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشيطان، فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب، وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام. وبعضهم يقول: إنها الملائكة. وبعضهم يقول: إنها هي العقول المجردة. وبعضهم يقول: هي روحانيات الأجرام العلوية. وكثير منهم لا يسأل عما عهد، بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلها، ولا يسأل عما وراء ذلك. وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم عليه السلام وعبادتها في الأرض من قبل نوح عليه السلام كما تقدم، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها، والكتب المصنفة في شرائح عبادتها طبق الأرض. قال إمام الحنفاء: (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) (إبراهيم: 35- 36)" انتهى.

وذكر الحافظ ابن كثير بأن الجن قد يُظهرون النفع وردّ الأذى عند الاستعاذة بهم ليُرهبوا الإنس ويستعبدوهم، ثم يوقعوهم في الذل والشرك، كما في قصة الراعي الذي استغاث بجنيٍّ فردّ له الحمل استدراجًا وإضلالًا، قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى:(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن المغراء الكندي، حدثنا القاسم بن مالك -يعني المزني-عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن أبيه، عن كَردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم. فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي، جارك. فنادى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان، أرسله. فأتى الحملَ يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}

ثم قال: ورُوي عن عبيد بن عمير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعي، نحوه. **وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل -وهو ولد الشاة-وكان جنّيا حتى يُرهب الإنسي ويخاف منه، ثم رَدَّه عليه لما استجار به، ليضله ويهينه، ويخرجه عن دينه**، والله أعلم". تفسير ابن كثير - سورة الجن - آية (6)

وبهذا يتبين أن ما كان يُرى عند هذه الأوثان والتتماثيل من خوارق أو إجابات لم يكن كرامةً ولا شفاعة، وإنما تلبيسٌ شيطانيٌّ قصدُه تثبيت الناس على الشرك وصرفهم عن التوحيد.

المُحتَويات